

اليوم الآخر

عناصر الموضوع

١٥٦	مفهوم اليوم الآخر
١٥٧	اليوم الآخر في الاستعمال القرآني
١٥٨	أسماء اليوم الآخر
١٦٣	أوصاف اليوم الآخر
١٧٠	الأدلة القرآنية على البعث بعد الموت
١٩٠	أبرز أحداث اليوم الآخر
٢١٤	المآل والمصير

مفهوم اليوم الآخر

أولاً: المعنى اللغوي

بداية لا بد من إعطاء معنى لغوي للفظتي: (اليوم) و(الآخر)؛ لكون مصطلح الدراسة مركب منهما، وذلك بالرجوع إلى معجمات اللغة.

اليوم لغةً: تدور دلالة اليوم غالباً في المعجمات اللغوية على الزمن المقيّد أو المطلق، فالياء والواو والميم: كلمة واحدة، هي اليوم المعروف، وهو غالباً عند العرب في كلامها يدل على النهار من طلوع الشمس إلى غروبها، وقد تطلقه على الليل والنهار كليهما. وقد يستعمل اليوم في اللغة للدلالة على مطلق من الزمان أي: الوقت الحاضر من الزمان^(١). وقد يراد به «الوقت مطلقاً، ومنه الحديث: (تلك أيام الهرج)^(٢) أي: وقته»^(٣). ومن معاني اليوم لغة أيضاً: الدهر، ويستعمل أيضاً بمعنى: الدولة وزمن الولايات، وبمعنى: الوقائع. ويستعار عند العرب للشدة والأمر العظيم^(٤).

الآخر لغةً: خلاف الأول والمتقدم ونقيضهما، وهو من الفعل أخرته فتأخره، يقال: جاء أخراً، أي: أخيراً، والجمع: أواخر، والآخر من أسماء الله تعالى قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

والآخر: هو الباقي بعد فناء خلقه كله الذي ليس بعده شيء^(٥).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

فقد تطور من معناه اللغوي وأخذ منه في معنى مناسب له في الكلام. ولليوم الآخر تعريفات عدة عند العلماء متقاربة.

ويمكن تعريفه بأنه اليوم الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء، وسمي بذلك؛ لأنه آخر انقراض الدنيا وآخر أيامها ولا يوم بعده، فهو آخر الأوقات المحدودة الذي لا حد للوقت بعده^(٦).

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ٤٦٣/١٥، لسان العرب، ابن منظور ٦٤٩/١٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة، رقم ٤٢٥٨، ٦/٣١٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور ٦٤٩/١٢.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٤٥/٣٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ١٥٩/٦.

(٥) انظر: تهذيب اللغة ٢٢٧/٧، تاج العروس ٣٤/١٠.

(٦) انظر: العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين، حسين بن غنام، ص ٥٧.

اليوم الآخر في الاستعمال القرآني

ورد (اليوم الآخر) في القرآن الكريم (٢٨) مرة ^(١).
والصيغ التي وردت، هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]	٢٨	اليوم الآخر

اليوم: اسم لما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والآخر: خلاف الأول وبعده،
و(اليوم الآخر) في الاستعمال القرآني: اسم يطلق على يوم القيامة، ولم يخرج في الاستعمال
القرآني عن هذا المعنى ^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢١، ص ٧٧٥-٧٨٠،
المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة ص ٣٤-٣٥، باب الياء ص ١٤٤٢-١٤٤٨.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/٤١٣-٤٢١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي،
ص ٦٣٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/٣٥٩-٣٦٠.

أسماء اليوم الآخر

للإحاطة بدلالة اليوم الآخر في التعبير القرآني لابد من دراسة الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم تدل على اليوم الآخر وتشير إليه من قريب أو بعيد، وإذا نظرنا في القرآن الكريم نرى كثرة في الألفاظ الدالة عليه وتعددتها بشكل لافت، وكل ذلك تقرير لحقيقة هذا اليوم وبيان ماهيته، ومما يجليه أمام العيان عن طريق وحي الألفاظ الدالة عليه.

وتوارد هذه الألفاظ في القرآن الكريم التي هي بعضها أسماء له، وتنوعها وكثرتها يدل على عظيم قدره وهوله وشدته ويبين شدة أهوال ذلك اليوم وتأثيره في الناس قوله تعالى: ﴿بَتَائِبُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

بالإضافة إلى ذلك فإن كثرة أسمائه وأوصافه تدل على أهميته وشرفه؛ لأن كثرة الأسماء والأوصاف الدالة على الشيء الواحد تدل على شرف المسمى وكماله غالباً، قال الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ): «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف

المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء يوم القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتهما، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظيمته، وكثرة أسماء النبي -عليه الصلاة والسلام- دلت على علو رتبته، وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه، وفضيلته؟!»^(١).

والقرآن الكريم عندما يستعمل هذه الألفاظ للدلالة عن ذلك اليوم العظيم، فإن كل لفظ منها يجلي صفة من صفاته وأهواله، و«كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها»^(٢) من هذه الروابط والضوابط التي تضبطها بقدرة الله وإرادته. كما أن تعددها وتجمعها على صعيد واحد يقرب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد صورة ذلك اليوم على الكون والانسان وأهواله وشدته، فيحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، والملاحظ أن هذه الألفاظ أغلبها قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٨٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٧٩.

أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿ [النساء: ٨٧].

وقوله: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَنَ وَجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَإِذَا صُفَّتْ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وغيرها من الآيات الكريمة. والقيامة لغة: مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث؛ للمبالغة، وسمي بذلك؛ لما يقوم فيه من الأمور العظام التي بيتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين^(٢).

٢. الساعة.

من الألفاظ الدالة على ذلك اليوم العظيم أيضًا: الساعة، وورد هذا اللفظ تسعًا وثلاثين مرة في خمس وثلاثين آية من آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِدُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وغيرها من الآيات. وأطلق لفظ الساعة على اليوم الآخر؛ إما لقربه، أو لأنه يأتي بغتة، أو في لحظة، أو في ساعة معينة وإذا باليوم الآخر قد قام، والناس غير متبهين.

تأسيس أصول الدين والعقيدة السليمة في القلوب، وهي توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته للكون والخلائق جميعًا، وفي مقدمتها: الإنسان الذي كرمه الله أيما تكريم وفضله على كثير ممن خلق تفصيلًا، لذلك كان من «صفات السور المكية وبخاصة السور القصيرة منها أنها ذات أسلوب وإيقاع قويين شديدين في وقعها يعملان على قرع القلوب بحقائقها التي تؤذيها»^(١)، ومنها هذه الألفاظ الدالة على اليوم الآخر التي ترد كثيرًا في مطالع هذه السور وفي آياتها فتلفت الانتباه لفتًا قويًا في تلقي المعاني والأصول الكبرى للدين الحنيف، وستناول في هذا الموضوع بالتفصيل أسماء اليوم الآخر والألفاظ ذات الصلة به؛ لتحاول أن نجلي للمتلقي ونكشف له عن المعنى الذي ينطوي وراءها قدر الإمكان:

١. القيامة.

جاء هذا اللفظ للدلالة على اليوم الآخر في سبعين آية من آيات القرآن الكريم، وهو من أجلى الأسماء والصفات لذلك اليوم وأشهرها. ولم يرد هذا الاسم إلا مركبًا (يوم القيامة) من ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ

(١) انظر: التعبير الفني في القرآن، بكرى شيخ أمين، ص ٢٥٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥١٨/٢.

بالتاء، وأوثر التعبير بلفظ (الواقعة) على وزن (فاعلة)؛ ليدل على العموم والشمول والشدة والمبالغة^(٣).

٤. الحاقة.

جاءت ﴿الْحَاقَّةُ﴾؛ للدلالة على اليوم الآخر ثلاث مرات في موطن واحد عند قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ إِذِ انبَعَثُوا إِذْ جَاءَهُمْ شَارِبٌ كَاثِرٌ ۝٤ فَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَارَهُمْ إِذْ يَخْرَجُونَ ۝٥﴾ [الحاقة: ٤-١].

سمي بذلك؛ «لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾»^(٤). أو أنها: «سميت بذلك لأن فيها الثواب والجزاء»^(٥).

إضافة إلى ذلك أن في إطلاق لفظ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ على اليوم الآخر دلالة على العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى، وهو اسم على وجه التخصيص ليوم القيامة، أي: إنها تحق الحق في ذلك اليوم الذي لا يحيط به العلم والإدراك.

٥. الغاشية.

جاء لفظ ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ للدلالة على اليوم الآخر في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

وسمي بذلك؛ لأنه يغشى الناس بأفزاعه

(٣) انظر: معاني الأنبياء في العربية، فاضل السامرائي ص ١٢٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٨/٨.

(٥) معاني القرآن، الفراء ١٧٩/٣.

قال القرطبي رحمه الله: «والساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقبها، فإن كل آت قريب. وإما أن تكون سميت بها تنبيها على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود. وقيل: إنما سميت بالساعة؛ لأنها تأتي بغتة في ساعة»^(١).

٣. الواقعة.

يأتي لفظ الواقعة للدلالة على اليوم الآخر في موطنين من القرآن الكريم فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ۝٢ حَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَسَوَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ١-٦].

والموطن الثاني في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَتَحَهُ وَجْدَةٌ ۝١٣ وَرُجِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣-١٥].

وسمي بالواقعة؛ لتحقق كونه ووجوده؛ لأنه يقع لا محالة، أي: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله^(٢).

ولفظ (الواقعة) من الأسماء التي انتقلت من الوصفية إلى الاسمية؛ لأنها ختمت

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٥٤٦.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/٤٥٥.

الكون كله، يقال: أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده^(٢)، وأصل القرع: «الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفارقة^(٣)». إذا وقع بهم أمر عظيم^(٤)، ويعمق هذا الإيحاء الإيقاع المنبعث من حروف ﴿الْفَارِعَةُ﴾ (القاف والراء والعين) المعروفة بقوتها وشدتها.

٧. الأَرْفَةُ.

ورد هذا اللفظ في موضعين الأول مضافاً إلى اليوم في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

والثاني مجرداً في قوله تعالى: ﴿أَرْفَتِ الْأَرْفَةُ﴾ [النجم: ٥٧].

وسمي اليوم الآخر بـ﴿الْأَرْفَةُ﴾ لأزوفه، أي: لقرب وقوعه، وضيق وقته؛ لأن الأرف: ضيق الوقت^(٥).

واليوم الآخر قريب جداً، وكلُّ آتٍ فهو قريب وإن بعد مداه. وهو بعد ظهور علاماته أكثر قرباً. ولا يخفى ما للفظ ﴿الْأَرْفَةُ﴾ من تعظيم لشأنه وتفخيمه فهي قد «اقتربت

وأهواله وشدائده ويغمهم، ومن معانيه أن الكفار تغشاهم النار، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفْسَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

أو سمي بذلك؛ لأنه يغشى الناس من كلِّ جهة أو بسبب مشاهدته المفزعة تغشى الناس فجاءة، ولا يخفى ما لهذا اللفظ من تصوير للهول الذي يحلُّ بالخلق يوم القيامة، وفي ذلك تهويل له في القلوب، وفيه إثبات لشاهده ودليله فهو يغشى الناس بعذابه ويلبسهم أهواله، قال الزمخشري رحمه الله: «﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها»^(١).

٦. القارعة.

ورد هذا اللفظ للدلالة على اليوم الآخر أربع مرات في موطنين الأول في قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ نَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤].

والثاني تكرر اللفظ فيه ثلاث مرات في سورة القارعة وذلك في قوله تعالى: ﴿الْفَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣].

وسمي بالقارعة؛ لأنه يقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفراع لعظيم ما ينزل بهم من البلاء عندها، ويقرع الكون بالدمار والتحطيم وتتغير فيه معالم

(١) الكشاف ٤/ ٧٤١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٣٦.

(٣) فقرتهم الفارقة: أصابتهم مصيبة أو داهية كسرت فقار ظهورهم.

انظر: لسان العرب ٥/ ٦٢، مادة فقر.

(٤) صفوة التفسير، الصابوني ٣/ ٥٦٨.

وانظر: لسان العرب ٨/ ٢٦٥ مادة قرع.

(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٥.

وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: الأرض والجبال، من قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤].

و﴿الرَّادِفَةُ﴾: السماء والكواكب؛ لأنها تنشق وتنتشر كواكبها على أثر ذلك»^(١).
٩. الصاخة.

ورد لفظ ﴿الصَّائِغَةُ﴾ في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّائِغَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَخِيْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

وسمي اليوم الآخر بالصاخة؛ «لشدة صوتها؛ لأنها تصخ الأذان، أي: تصمها فلا تسمع»^(٢)، فهذا اليوم العظيم يصخُّ الناس فيه صخاً بأهواله الشديدة، ومما يعزز هذا المعنى ويعمقه جرس اللفظ، فهو جرس شديد «يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقاً، حتى يصل إلى الأذن صاخاً ملحاً»^(٣).

١٠. الطامة الكبرى.
جاء لفظ ﴿طَامَةُ الْكَبْرِئِ﴾؛ ليدل على اليوم الآخر في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكَبْرِئِ ﴿٣٦﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات: ٣٤-٣٥].

وسمي بـ﴿طَامَةُ الْكَبْرِئِ﴾؛ لتفطيعه في
(٢) الكشاف ٤/٦٩٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/٤٦٦.
(٤) في ظلال القرآن ٦/٣٨٣٤.

كاسحة جارفة، وهي الطامة والقارعة التي جاء النذير يحذركم إياها، أو هو العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده، ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾^(١).

٨. الراجفة والرادفة.
ورد هذان اللفظان في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٩].

وهما يصوران على نحو شديد ما يقع من الهول والاضطراب في الكون حيثئذ، فسمي بالراجفة؛ لأن فيه تهتز السموات والأرض ويضطرب نظامهما ويدمر كل شيء فيهما، أما تسميته بالرادفة؛ لأنها تتبع الراجفة، وقيل: هما النفختان في الصور، قال الزمخشري رحمه الله: «﴿الرَّاجِفَةُ﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها، ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢].

أي: القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم؛ لاقتربها.
(١) في ظلال القرآن ٦/٣٤١٨.

أوصاف اليوم الآخر

تناولنا فيما سبق أسماء اليوم الآخر والألفاظ ذات الصلة به، والآن نتناول أوصاف هذا اليوم في التعبير القرآني؛ لتتضح ملامح هذا اليوم العظيم من خلال هذه الأوصاف.

والناظر في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى وصف اليوم الآخر بأوصاف كثيرة متنوعة، وهذه الأوصاف تبين حقيقته، فهي بمثابة التعريف به وبيان ماهيته، وسنحاول الوقوف على معنى الوصف ودلالته ومناسبته لليوم الآخر في القرآن الكريم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً:

١. يوم الدين.

يعد هذا الوصف ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ من أشهر أوصاف اليوم الآخر، وقد ورد في ثلاثة عشر موضعاً من كتاب الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِحِينَ السُّجُودِ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [البقرة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠].

وغيرها من الآيات الكريمة. وأصل الدين في لغة العرب: الجزاء والحساب، «يقال: كما تدين تدان، المعنى: كما تعمل تعطى وتجازى»^(٤).

ومن هنا كان المراد من يوم الدين: يوم

قلوب السامعين وتهويله في نفوسهم، فهو يَطْمُّ بأهواله ودواهيته الخلق لعظمه، قال البغوي رحمه الله: «وسميت القيامة طامة؛ لأنها تطم على كل هائلة من الأمور، فتعلو فوقها وتغمر ما سواها، والطامة عند العرب: الداهية التي لا تستطاع»^(١). وبناء ﴿الطَّامَّةُ﴾ وجرسها الإيقاعي يصوران هذا المعنى ويقربانه، فهي تدل على العموم والشدة والمبالغة؛ لأنها من الأسماء التي ختمت بـاء التأنيث، فانقلبت من الوصفية إلى الأسمية^(٢).

١١. الآخرة.

ورد لفظ الآخرة في القرآن الكريم مائة وخمس عشرة مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُؤَقِّنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذُرُونَ آخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١].

وغيرها من الآيات. و«سميت آخرة؛ لتقدم الدار الأولى أمامها، فصارت التالية لها آخرة. وقد يجوز أن تكون سميت آخرة؛ لتأخرها عن الخلق، كما سميت الدنيا (دنيا)؛ لدونها من الخلق»^(٣).

(١) فتح القدير ٤٥٩/٥.

(٢) معاني الأبنية في العربية، ص ١٢٢-١٢٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤٥/١.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤٧/١.

الحساب والجزاء الذي يحاسب ويجازي الله فيه العباد على أعمالهم وأفعالهم في الدنيا.

٢. يوم الحساب.

وصف هذا اليوم بـ ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ في القرآن الكريم في أربعة مواضع ثلاثة منها في سورة ص والآخري في سورة غافر، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ووصف هذا اليوم بيوم الحساب؛ لأن فيه يحاسب الله تعالى العباد على أعمالهم خيرا وشرا والنعم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم ومطاعمهم، وغير ذلك من النعم، قال القرطبي: «يوم الحساب معناه أن الباري سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض فما يشف منها على الآخر حكم للمشفوق بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشر»^(١).

٣. يوم الجمع.

جاء وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ في موضعين من كتاب الله تعالى، الأول: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا

عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْبَبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ [التغابن: ٩].

ووصف الله تعالى هذا اليوم العظيم بيوم الجمع؛ لأنه تعالى في هذا اليوم يجمع الخلائق كلها أولها وآخرها للحساب، قال الرازي رحمه الله: «وفي تسميته بيوم الجمع وجوه: الأول: أن الخلائق يجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]. فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض، الثاني: أنه يجمع بين الأرواح والأجساد، الثالث: يجمع بين كل عامل وعمله، الرابع: يجمع بين الظالم والمظلوم»^(٢).

٤. يوم الفصل.

وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ في ستة مواضع من الكتاب الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكَذُّبُونَ﴾ [الصافات: ٢١].

وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

وغيرها من الآيات الكريمات. والفصل: البون ما بين الشيتين والجبلين وهو المفصل، ويطلق أيضًا ويراد به القضاء بين الحق والباطل، يقال: أمرٌ فيصَلُ وفاصِلٌ،

(١) التذكرة بأحوال الموتى ص ٥٦٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/٥٨٠.

أي: قاطع^(١).

الله الخلق يبعثهم بعثاً: نشرهم^(٤).

فهو يوم عظيم للخلق بعد الموت وانقضاء الدنيا يوم يبعثهم الله من قبورهم للحساب والجزاء، فينبئهم الله تعالى بما عملوه في الدنيا.
٦. يوم التلاق.

ووصف اليوم الآخر بيوم الفصل؛ لأنه اليوم الذي يفصل فيه بين عباده الأولين والآخرين بأعمالهم فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

إضافة إلى ذلك أنه اليوم الفاصل الذي يبين الحق فيه من الباطل^(٢).
٥. يوم البعث.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمِ النَّارِ﴾ إلا مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مِنْشَأِهِ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ النَّارِ﴾ [غافر: ١٥].

ورد وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ مرتين في موضع واحد من كتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

ووصف اليوم الآخر به من عدة وجوه منها أنه يوم عظيم يلتقي به الخلق كلهم الأولون والآخرون، حتى يلتقي فيه آدم عليه السلام بأخر ولده، وفيه يلتقي الخالق بالمخلوق، ويلتقي فيه أهل السماء بالأرض، والظالم بالمظلوم، بالإضافة إلى أنه يوم تتلاقى فيه الأرواح بالأجساد، وأن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر ويجازى عليه وغيرها^(٥).

وأصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف بحسب اختلاف ما علق به. ويوم البعث هو يوم الخروج من القبور^(٣).

٧. يوم التغابن.

جاء وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمِ التَّغَابُنِ﴾ مرة واحدة فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [التغابن: ٩].

قال ابن منظور: «والبعث أيضاً: الإحياء من الله للموتى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾: أي: أحييناكم. وبعث الموتى: نشرهم ليوم البعث. وبعث

و(التغابن) على وزن تفاعل من الغبن

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٢٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ١٣٢.

(٤) لسان العرب ٢/ ١١٧، مادة بعث.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٣٥-١٣٦.

العظيم فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كَفَرُوا قَدْ عُمُوا﴾ [القصص: ٧٤].

والناس يومئذ ينادي بعضهم بعضاً في هذا اليوم، فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفون بسيماهم في النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، وينادي أهل النار بعضهم بعضاً؛ للاستغاثة، أو يتصاحون فيه بالويل والثبور. والملائكة تنادي الخلق ينادون إلى المحشر، وتنادي أصحاب الجنة إلى غير ذلك مما يقع في هذا اليوم من التنادي (٣).

٩. يوم الخلود.

ورد وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْطَنٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

ووصف اليوم الآخر بيوم الخلود؛ لأن الناس يصيرون إلى دار الخلود، فالمؤمنون مخلدون في الجنان والكافرون مخلدون في النار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] (٤).

وهو: «أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء» (١).

أما في سبب وصفه بيوم التغابن؛ لأنه في ذلك اليوم يظهر الغبن والتفاوت بين الخلق من أربعة وجوه:

أحدها: أنه ليس من كافر إلا وله منزل وأهل في الجنة، فيرث ذلك المؤمن، فيغبن حيثئذ الكافر.

والثاني: غبن أهل الجنة أهل النار.

والثالث: أنه يوم غبن المظلوم الظالم؛ لأن المظلوم كان في الدنيا مغبوناً، فصار في الآخرة غابناً.

والرابع: أنه يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه للإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان (٢).

٨. يوم التناد.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُومِ إِلَىٰ آخِافٍ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ [غافر: ٣٢].

والناد: مصدر تنادى القوم، أي: نادى بعضهم بعضاً، ويوم التناد وصف لليوم الآخر، وصف بذلك؛ لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم، فالله تعالى ينادي المشركين؛ توبيخاً لهم في ذلك اليوم

(٣) انظر: روح المعاني، الألويسي ١٢/ ٣٢٠.

(٤) انظر: القيامة الكبرى، عمر الأشقر ص ١٩.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٠٢.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٩٣.

١٠. يوم الحسرة.
وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

ووصف هذا اليوم بيوم الوعيد؛ لأنه اليوم الذي يحصل فيه الوعيد للكافرين الذي توعدهم الله به في الدنيا، وإضافة يوم إلى الوعيد من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي: يوم حصول الوعيد الذي كانوا توعدوا به، والاقتران على ذكر الوعيد؛ لما علمت من أن المقصود الأول من هذه الآية هم المشركون^(٣).

١٣. اليوم الموعود.

وصف اليوم الآخر بـ(اليوم الموعود) مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢].

ووصف هذا اليوم بالموعود؛ لأنه تعالى وعد بوقوعه بعد زوال الدنيا، واجتماع الخلق فيه، ومحاسبتهم على أعمالهم كلها^(٤).

١٤. يوم الوقت المعلوم.

وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ مرتين في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨].

وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨٠-٨١].

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/٣٠٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، جزء عم، ابن عثيمين ص ١٢٥.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمِ الْحَسْرَةِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

ووصف هذا اليوم بيوم الحسرة؛ لشدة تحسر العباد فيه وندمهم على ما فرطوا فيه من الصالحات في الدنيا. والحسرة: الغم على ما فات والندم عليه، قال تعالى عن حال المقصر في الآخرة: ﴿بِحَسْرَةٍ عَلَيَّ مَا فَرَطْتُ فِي جَنَّةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]^(١).

١١. يوم الخروج.

وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمِ الْخُرُوجِ﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢].

والخروج: مأخوذ من خرج يخرج خروجًا إذا برز من مقره أو حاله. ووصف هذا اليوم بيوم الخروج؛ لأنه يوم الخروج من القبور، فالخلق يخرجون من قبورهم للحساب؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَابِ مِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِنَّ نَفْسٍ يَوْفُؤُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]^(٢).

١٢. يوم الوعيد.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمِ الْوَعِيدِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم،

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٢٣٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٧٨.

تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿

[هود: ١٠٣].

﴿ ويوم عقيم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٥].

﴿ ويوم يكشف عن ساق في قوله تعالى:

﴿ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢].

﴿ ويوم جعل الولدان شيباً في قوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ تَنْقُوتُ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

﴿ ويوم لا بيع فيه ولا خلة في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفْعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿ ويوم لا ريب فيه في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا

إِنَّكَ جَاعِلُ النَّاسِ يَوْمَ لَأ رَبِّ فِيهِ ءَاتٍ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ ءَلِيمَكَ ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿ ويوم تجد كل نفس ما عملت من خير

محضراً وما عملت من سوء في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ زَعُوفٌ بِءَالِمَاتٍ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

ووصف اليوم الآخر بيوم الوقت المعلوم؛ لأن الله تعالى عنده علمه وحده (١).

هذه أشهر أوصاف اليوم الآخر في القرآن الكريم، وقد وردت أوصاف أخرى كثيرة تدلُّ على أن المراد منها هو اليوم الآخر، اشتقها العلماء من الآيات ومعانيها من ذلك:

﴿ يوم عسير في قوله تعالى: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [المدثر: ٩].

﴿ ويوم عظيم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥].

﴿ ويوم كبير في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِيَكُمْ مِنْهَا حَسَنًا إِنْ أَجَلٌ مُسَمًّى وَرَبُّنَا كُلُّ ذِي فَضْلٍ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣].

﴿ ويوم أليم في قوله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٦٥].

﴿ ويوم عبوس قمطرير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٠].

﴿ ويوم مشهود في قوله تعالى: ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٩/١٤١.

❖ ويوم يأتي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

❖ ويومهم الذي في قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَبْخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

❖ ويوم يحمى عليها في نار جهنم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

❖ ويوم يلقونه في قوله تعالى: ﴿فَاعْقِبْهُمْ يَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

❖ ويوم مجموع له الناس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

إلى غير ذلك من الأوصاف التي جلت معالم هذا اليوم المهول ورسمت معالمه. واليوم الآخر لما عظم أمره وكثرت أهواله، سماه الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفه بأوصاف كثيرة، وهذا شائع في كلام العرب، فهم كلما عظم شأن الشيء عندهم تعددت أسماءه وصفاته، فالشيء الحقير ما له إلا اسم واحد فقط، لكن الشيء العظيم

❖ ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

❖ ويوم يجمع الله الرسل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلَّةَ لَنَا إِلَّا أَنْتَ عَلَنَّا الْغُيُوبَ﴾ [المائدة: ١٠٩].

❖ ويوم ينفع الصادقين صدقهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

❖ ويوم يقول نادوا شركائي في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

❖ ويوم ينفخ في الصور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

❖ ويومكم هذا في قوله تعالى: ﴿يَلْمِزُوكَ الْيَهُودَ وَالنَّاسَ الَّذِينَ يَأْتِيكَمْ رَسُولٌ مُسَلِّمٌ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بَرَكَاتٌ وَسِدْرٌ وَتُكْرِمُهُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِحَيَاتِهِمْ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

الأدلة القرآنية على البعث بعد الموت

البعث كما سبق ذكره هو إحياء الأجساد وعودة الأرواح إليها، بعد نفخة الصور الثانية، فيقوم الناس لرب العالمين، حفاةً عراةً غرلاً، كما قال تعالى: ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

والبعث ركن ثابت في الإيمان باليوم الآخر، وقد أثبتته القرآن الكريم في كثير من المواضع، واستدل على وقوعه وتحققه وعالجه بشتى الطرق والأساليب، وأثبتته بالأدلة الثقلية عن طريق آياته التي توجب الإيمان به، والأدلة العقلية من خلال الاستدلال بآيات الله تعالى الكونية في الأرض على إثبات البعث بعد الموت، وجاء تركيز القرآن الكريم على هذه القضية؛ لأن كفار مكة كانوا ينكرونها، ويعتقدون أن لا حياة بعد الموت كما حكى عنهم القرآن: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

واستدلوا بعدم البعث بعد الموت واستبعدوه بعدم حدوث شيء لأبائهم كما حكى عنهم القرآن من ذلك في قوله تعالى:

له أسماء كثيرة، فالسيف) لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم مثل المهند، والصارم، والمسلول، والبتار وغيرها، و(الأسد) كذلك جمعوا له أسماء كثيرة مثل: ليث، وغضنفر؛ لأنه أسد^(١).

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٥٤٤.

محالة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وعلى النحو الآتي:

أولاً: الأدلة العقلية:

أورد القرآن الكريم أدلة عقلية كثيرة تثبت البعث والحساب، وسلك في ذلك لإثباتها مسالك مختلفة في طريقة العرض والاستدلال، ومن هذه الأدلة العقلية:

١. قدرة الله المحيطة بكل شيء.

من الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم في آياته لإثبات عقيدة البعث بعد الموت هي قدرة الله المحيطة بكل شيء، فالله تعالى خالق الكون كله ومنه الإنسان، وهو القادر على إحيائه بعد موته وهو أهون عليه، ولقد جاءت آيات كثيرة تدل على ذلك يقترن فيها الرد على منكري البعث بالتذكير بقدرة الله تعالى على ذلك منها تعرضها لشك الكافرين بالبعث والحساب، فترد عليهم، وتثبت من خلال الطبيعة كتاب الله المنظور تعالى صدق الوعد الذي يكذبونه، منوعة في عرض الأدلة تنوعاً عجيماً وصولاً إلى إثبات البعث ودفع شبه منكره.

والله تعالى له القدرة المطلقة، فهو سبحانه على كل شيء قدير، وما دامت له القدرة المطلقة تعالى، فإن مقتضى ذلك أن يقدر على إحياء الموتى، فضرب لهم سبحانه الأمثلة بأمر مشاهدة من الحياة

﴿يَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاءُنَا أِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّآبَاءُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٦-٦٨].

فرد عليهم القرآن الكريم ظنهم الفاسد وشكهم بالبعث والحساب بقوله تعالى:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثَرُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

وتوعدهم بالعذاب الأليم مثل قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَذَابًا وَبُكَاً وَصَمًّا مَا أُوتِيَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا حَبَّ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُرًا ﴿٩٧-٩٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٩].

وحاججهم في كثير من المواضع، وأثبت البعث والحساب بالأدلة العقلية - كما سيأتي بيانها بالتفصيل - كقوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ ﴿١٠٤﴾ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وستتناول فيما يأتي معالجات القرآن الكريم لشبهات منكري البعث، وإيراد الأدلة العقلية والنقلية على إثباته ووقعه لا

هي نظير بعث الأجساد وحشرها، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) **الذِّبْكَ تُطْفَئُ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنٍ** (٣٧) **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فِئْتَانٍ مَنُورٍ** (٣٨) **جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى** (٣٩) **أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَنَ أَنْ يُحْيِيَ الْلَوْنُ** [القيامة: ٣٦-٤٠].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَاءُ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطَ عَلَيْنِهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

ففي الآية «دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه إعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث؛ لأنه يدل على كمال القدرة، ومن المقدور عليه إعادة خلق الإنسان وإيجاده مرة أخرى، وقد قرن هذا الدليل بالتهديد حيث قال: ﴿إِنْ نَشَاءُ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطَ عَلَيْنِهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

ثم بين تعالى أن المتفجع بتلك الآيات كل من يرجع إلى ربه، ويتوب إليه، لا من يتمادى في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (١).

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الثالثة عشر، العدد ٥٠، ٥١ ربيع الآخر، رمضان

ومن الآيات التي دلت على قدرته تعالى في إحياء الموتى وبعثهم وحاججت منكري البعث قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (٥٠) **ثُمَّ لَكُمْ أَنْتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ** (٥١) **لَا كُفُوفٌ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ** (٥٢) **فَالَّذِينَ مِنْهَا الْبَطُونَ** (٥٣) **فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ** (٥٤) **فَشَرِبُوا شَرِبَ الْعَبِيرِ** (٥٥) **هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ** (٥٦) **مَنْ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ** (٥٧) **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ** (٥٨) **أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** (٥٩) **مَنْ خَلَقْنَا يَنْتَهُرُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ** (٦٠) **عَلَنَ أَنْ يُبَدَّلَ امْتِلَاكُكُمْ وَتُنْفِخَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ** (٦١) **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ** (٦٢) **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ** (٦٣) **أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** (٦٤) **لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَمْتُمْ فَفَكَّهُونَ** (٦٥) **إِنَّا لَمَعْرُومُونَ** (٦٦) **بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** (٦٧) **أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ** (٦٨) **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ** (٦٩) **لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ جُرَاجًا فَلََوْلَا تَشْكُرُونَ** (٧٠) **أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ** (٧١) **أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ** (٧٢) **مَنْ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ** (٧٣) **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** [الواقعة: ٤٩-٧٤].

وقد تضمنت هذه الآيات أربعة أدلة حسية ومشاهدة من واقع الإنسان وحياته على جواز البعث وإمكانه: الأول: ماء الرجل (المني) في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾، والثاني: إنبات النبات في

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (١٥) إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ (١٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، والثالث: إنزال المطر في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (١٧) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ وسيأتي بيان هذه الأدلة.

ومن أجل الآيات التي بينت قدرة الله على البعث وحاججت منكريه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَى الَّذِي كَفَرَ﴾ (١) بَلْ يَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا نَسْفَةٌ عَجِيبٌ﴾ (٢) أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حٰفِظٌ﴾ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِآلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ﴾ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِيسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧) تَبٰصِرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ﴾ (٨) وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً مُّبَدَّرًا فَنَاجَيْتُنَا بِهِ جُنْدَنَا وَحَبَّ الْعَصِيدِ﴾ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَدَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبْهِيْدٌ﴾ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَشَمُودٌ﴾ (١٢) وَعَادٌ وَرَعْبٌ وَإِنجُونُ لُوطٍ﴾ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبٰعِثُ كُلَّ كَذَّبٍ أُرْسِلُ عَنْهُمْ وَعَدِيْدٌ﴾ (١٤) أَنْعَمْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١-١٥].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (١٥) إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ (١٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، والثالث: إنزال المطر في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (١٧) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ وسيأتي بيان هذه الأدلة.

ومن أجل الآيات التي بينت قدرة الله على البعث وحاججت منكريه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَى الَّذِي كَفَرَ﴾ (١) بَلْ يَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا نَسْفَةٌ عَجِيبٌ﴾ (٢) أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حٰفِظٌ﴾ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِآلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ﴾ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِيسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧) تَبٰصِرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ﴾ (٨) وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً مُّبَدَّرًا فَنَاجَيْتُنَا بِهِ جُنْدَنَا وَحَبَّ الْعَصِيدِ﴾ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَدَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبْهِيْدٌ﴾ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَشَمُودٌ﴾ (١٢) وَعَادٌ وَرَعْبٌ وَإِنجُونُ لُوطٍ﴾ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبٰعِثُ كُلَّ كَذَّبٍ أُرْسِلُ عَنْهُمْ وَعَدِيْدٌ﴾ (١٤) أَنْعَمْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١-١٥].

وبعد سوق كل هذه الأدلة التي يراها كل

وخرج الإنسان من قبره للبعث يكون بنزول الماء من السماء أيضًا، كما جاء في الحديث الصحيح: (ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظامًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة) (١). ومن الأدلة على إمكانية البعث بيان قدرة الله تعالى على إخراج الأشياء من أضدادها. فإذا كانت الحياة ضد الموت، والبعث ضد الفناء، فإن الله تعالى الذي يخرج الضد ممن ضده قادر على إحداثه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ نَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

فالله هو الذي يخرج الإنسان الحي من النطفة، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان

(١) انظر: الإبداع البياني، الصابوني ص ٣١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، البخاري، كتاب التفسير، باب (يوم ينفخ في الصور)، رقم ٤٩٣٥، ٦/١٦٥.

الإلهية، ولكنه سبحانه يضرب الأمثال لنا بما نعقله وندرکه، وقد ورد هذا الاستدلال في آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين في مجملها أن خلقهما أعظم من خلق الإنسان.

ومن الآيات الدالة قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿يس: ٨١-٨٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿غافر: ٥٦-٥٧﴾.

فاستدل ربنا تعالى باقتداره على خلق السموات على اقتداره على إعادة الأرواح إلى الأجساد عند البعث بعد الموت؛ لأن خلق الإنسان أقل شأنًا من خلق السموات والأرض، ومن ثمَّ فإنَّ الله تعالى القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه خلق الإنسان -الذي هو جزء من هذا الكون- وإعادته.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يدمج الله تعالى الاستدلال على البعث بالتحدي

الحي، وكذلك الأنعام والبهائم، فالنطفة ميتة ثم ينشئ الله منها إنسانًا حيًّا، ومن الإنسان الحي تخرج النطفة الميتة، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ تَوَفُّكُونَ ﴿٥٧﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿الأنعام: ٩٥-٩٦﴾.

٢. القادر على الأكبر قادر على الأصغر.
من الأساليب القرآنية لإثبات البعث والحياة بعد الموت الاستدلال بأن من خلق الأعلى والأكبر والأعظم، فقدترته على خلق الأدنى والأصغر أولى، والله تعالى من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، ومن ذلك لفت النظر إلى خلق السموات وما فيهما من الشمس والقمر وسائر الكواكب والأرض وما فيها من جبال رواسي شامخات وأنهار وسهول وهضاب وغيرها، على ما اشتملت عليه من العظمة التي تعلقو على خلق الإنسان أضعافًا مضاعفة.

فكيف يقال للذي خلق هذا الخلق العظيم بأنه لا يستطيع أن يخلق ما دونها ويعيده بعد موته؟

وهذا في حق الخلق، أما في حق الله الخالق فالكل في قدرته، سواء كبر المخلوق أم صغر، فخلق السموات والأرض كخلق أصغر شيء، فالكل سواء في ميزان القدرة

أولى بالإمكان والقدرة من ذلك»^(١).

٣. القادر على البدء قادر على الإعادة.

من أدلة القرآن الكريم في الاستدلال على البعث بعد الموت استدلاله على وقوع وإمكان النشأة الثانية - البعث بعد الموت - بالنشأة الأولى - الخلق الأول.

وهذا استدلال جاء في كثير من آيات القرآن الكريم، استدلال يلزم منكر البعث الحجة بالدليل القاطع، فهو يغفل عن أن خلقه على هذا النحو أعظم دليل، فهو يرى بأم عينيه كل يوم النشأة الأولى للإنسان والحيوان، ومن كانت هذه حاله في الأولى لن يصعب إرجاعه في الثانية؛ لأن الذي خلق من العدم قادر غير عاجز تعالى على أن يعيده وهو أهون عليه، لكن فطرة هؤلاء المنكرين فسدت؛ لكفرهم وعنادهم، فغابت عنهم الحقائق الثابتة: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢].

ومن الآيات الكريمة التي ذكرت الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير منكري البعث المستبعدين له بهذه الحقيقة الثابتة التي لا يستطيع أحد إنكارها قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨ وَقَالُوا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٢٩٩.

وذلك في قوله تعالى: ﴿عَٰنَتُمْ أَشَدَّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءَ بَدُنْهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَعْتَكُمَا فَنَوَّهَهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُغْنَهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢].

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن أورد عددًا من الآيات حول هذا الاستدلال: «قاله تعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا؛ إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعًا ولو لغيره، وإن لم يعلم الذهن امتناعه؛ بخلاف الإمكان الخارجي. فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعًا، والإنسان يعلم الإمكان الخارجي؛ تارة بعلمه بوجود الشيء، وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه، فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه.

ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكنًا فلا بد من بيان قدرة الرب عليه، وإلا فمجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك. فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ يَنَّهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلَ لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ، وأن هذا الأيسر

من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءاً من بدن الحي، أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفةً بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حياً عاقلاً كما كان» (٣).

ولكن لا زال الجحود والشك والريبة تجول في عقول المنكرين للبعث ومخيلتهم، كما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخَضُونَ إِلَيْكُمْ زُرُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

فوجود دليل على العدم؛ إذ لولا ذلك لما كان للشيء وجود في الخارج. وفي موضع آخر من القرآن الكريم نجد تفصيلاً في الاستدلال على البعث بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فالقادر على جعل التراب بشراً سوياً، لا يعجزه أن يعيده بشراً سوياً مرة أخرى بعد موته، ويذكر أيضاً بخلقنا نحن -ذرية آدم- فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تحوّل هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضغة. إلى أن نفخ فيها الروح، وجعلها إنساناً سوياً.

فالقادر على هذا الخلق المشاهد

أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرُقْنَا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤١﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخَضُونَ إِلَيْكُمْ زُرُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا ﴿[الإسراء: ٤٨-٥٢].

فالأيات تعرض لسؤال منكري البعث المتكرر دوماً (من يعيدنا؟)، (من يبعثنا؟) وهذا غاية الإنكار منهم، كما قال الألويسي رحمه الله: «فيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه» (١).

فجاءت الآيات بالجواب البليغ المفحم بأن قل لهم يا محمد -تحقيقاً للحق، وإزاحة للاستبعاد، وإرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال-: إن الذي يعيدكم ويبعثكم هو الله القادر العظيم الذي فطركم وأنشأكم في النشأة الأولى، من غير مثال سابق يحتذيه ولا أسلوب يتحيه، وكنتم تراباً ما شم رائحة الحياة، أليس الذي يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية إلى حالتها المعهودة؟! بلى إنه على كل شيء قدير (٢).

قال الرازي رحمه الله: «فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية، وبين قبول الحياة أشد

(١) روح المعاني ٨/ ٨٧.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٧٧.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٣٥٢.

والمعلوم، قادر على إعادته، وإحياء الموتى. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لِكُلِّ أَجَلٍ مُّسَدَّدٍ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّؤْتُوا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْلَقِيُّ وَأَنَّهُ يَهْدِي السُّبُلَ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وهذه الآيات لها دلالة عقلية على البعث: فهي نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وأن إنشاء الإنسان من التراب، وتطور الجنين في مراحل حياته، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود، كل ذلك متعلق بأن الله هو الحق، فهو من السنن المضطردة التي تنشأ من أن خالقها هو الحق الذي لا تختل سننه ولا تتخلف، وأن اتجاه الحياة في هذه الأطوار؛ ليدل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها.

وهذه الآيات تعطي تفصيلاً للمراحل التي يمر بها خلق الإنسان، فقد قابل الله هذه المراحل بعدة دلالات على قدرته سبحانه على البعث. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «أي إنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد، وهو خلق الإنسان؛ فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد، وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الأدمية بأعضائها وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٩.

بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال؛ إذ إن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، فهو يقف ثم يتراجع ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.

فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان، فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة، فهي تدلُّ على البعث من ناحية أنَّ القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدلُّ على البعث؛ لأنَّ الإرادة المدبرة تكملُّ تطوير الإنسان في الدار الآخرة، وهكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء، تشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر، الذي ليس في وجوده جدال^(١).

ومن الآيات أيضًا قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

فالله تعالى يعلم أين ذهبت العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها وتفرقتها وتمزقتها، ويعلم مم يعيد خلق الإنسان كما بدأه من أصغر جزء في الإنسان وهو: عجب الذنب. قال مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدي، وقتادة في سبب نزول هذه الآيات الكريمات: (جاء أبي بن خلف إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظمٌ رميمٌ، وهو يفتته ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: (نعم، يميئك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار).

ونزلت هذه الآيات من آخريس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، إلى آخرهن عن ابن عباس، (أن العاصي بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففتته بيده، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، يميئك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم). قال: ونزلت الآيات من آخريس^(٢).

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق؛ ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَن تَرَّ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٧-٢٨].

وهذه الآيات مثل ضربه الله تعالى لعباده؛ ليدلَّ على «أن الإعادة أهون عليه

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/٢٤٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/٥٩٤.

البعث.

إنَّ تَقْلِبَ الْخَلْقِ بَيْنَ الْمَوْتِ (العدم) ثُمَّ الْحَيَاةِ، ثُمَّ الْمَوْتِ، ثُمَّ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ الْخَالِدَةِ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الَّتِي تَجْعَلُ النُّفُوسَ تَخْضَعُ لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَخْبَعْتُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وفي كثير من المواضع من القرآن الكريم يبين ربنا الرحمن تعالى أن من تمام مستحقات ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يميت ويحيي، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ومن كانت هذه حاله فهو قادر على رد الأرواح إلى الأجساد وبعثها في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُنْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَاوَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ تَوَفِكُونَ ﴿١٧﴾ فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ آيَاتَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَهُوَ

من البداية، أي: أسير، وإن كان جميعه على الله تعالى هيناً، وقاله ابن عباسٍ. ووجهه أن هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخلاق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم»^(١).

يقول الفخر الرازي رحمه الله معلّقاً على هذه الآيات نقلاً: «لو اجتمع كلُّ الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها؛ إذ لاشكُّ أنَّ الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً، ونظيره: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]»^(٢).

وبمجموع الآيات السابقة كلها نجد أن أسلوب الآيات يمزج الحجج والبراهين العقلية القاطعة بالكلمات البليغة المؤثرة، والمنطق الصحيح، وبهذا يرد القرآن الكريم على منكري البعث والحساب ويجادلهم ويبطل مزاعمهم، ويبدد شبههم الباطلة الواهية في أسلوب بليغ محكم يلزم الحجة في الاستدلال على البعث بعد الموت بالنشأة الأولى.

٤. القادر على الإمامة ثم الإحياء قادر على

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢١/١٤.

(٢) مفاتيح الغيب ٥٥٦/٢١.

الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعٍ وَمُسْتَوْعٍ
قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿ [الأنعام:
٩٤-٩٨].

وأبعد من ذلك فقد استدل القرآن الكريم في كثير من آياته بخصص وأحداث من أماتهم الله تعالى ثم أحياهم في الدنيا؛ ليثبت قضية البعث بعد الموت، ويدلل على صدق ما أخبر به الرسل من أمر المعاد. ومن هذا الاستدلال ما ورد في سورة البقرة، إذ وردت فيها أحداث متنوعة تدل على ذلك:

منها حادثة بني إسرائيل مع نبيهم سيدنا موسى عليه السلام حين قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأماهم الله تعالى، ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطباً بني إسرائيل في معرض الامتنان عليهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿ [البقرة: ٥٥-٥٧].

وقريب من هذه الحادثة ما تحكيه لنا السورة المباركة أن أناساً فروا خوفاً من قدر الله المتحقق في الموت، وهم ألوف، فوقعوا به فماتوا ثم أحياهم الله بعدها، يقول ربنا تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِينَ

خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿ [البقرة: ٢٤٣].

وفي هذه الآيات «يقص سبحانه وتعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا يعني حذر عن قدر، ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ إن الله تعالى ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفاً وحلماً، وبيانا لآياته لخلقهم بإحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم ﴿عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله تعالى على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقر بها ويصرفها في طاعة المنعم»^(١).

ومنها أيضاً في الاستدلال على البعث قصة العزيز عليه السلام وهو أحد أنبياء بني إسرائيل الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى، فأماته الله تعالى مائة سنة، ثم أحياه.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٦.

نفسها سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى؛ فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله، ثم يناديهن، فتلتصم الأجزاء بعضها إلى بعض، ويأتين إلى إبراهيم سعيًا. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهذه الحادثة أخرى يستدل بها القرآن الكريم على البعث بعد الموت بطريقة عملية تطبيقية.

ومنها أيضًا في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها؛ ليخبرهم بمن قتله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعْطِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَرُبِّيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة. لقد كانوا قد قتلوا نفسًا منهم ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه. ولم يكن هناك شاهد فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته

مَرَّ عَلَىٰ قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُعْطِيهِ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامًا ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّيْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظِرُ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظِرُ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظِرُ إِلَىٰ أَلْوْطَارِ كَيْفَ نُدشِرْهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لِحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ٢٥٩﴾.

وهذه القرية هي: بيت المقدس، خربها الملك الجبار بختنصر وقتل أهلها، فمر عليها عزيز، فإذا بالقرية خربة مدمرة، فوقف عزيز متفكرًا فيما آلت إليه من الخراب، مستعظمًا قدرة الله ومعترفًا بالعجز عن معرفة طريق الإحياء فقال: ﴿أَنَّىٰ يُعْطِيهِ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟! فأراه الله ذلك في عالم الواقع؛ ليكون ذلك أبلغ في المعرفة؛ لأن أحاسيس الإنسان ومشاعره أحيانًا لا تقبل مجرد دليل، فأراه الله أبعاد الأمرين في نفسه على أبلغ وجه، حيث أماته فاختلط لحمه وعظمه وشعره بالتراب ثم أحياه، ثم في غيره حيث أحياه الحمار وحفظ طعامه من الفساد؛ ليكون ذلك آية على قدرة الله على البعث والإعادة ودرسًا لغيره^(١).

ومن هذا الاستدلال في السورة المباركة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٨٩، تفسير القرآن العظيم ١/٦٨٨.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا
مِنَ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾
فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ
عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْسَنُ
لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿﴾ [الكهف: ١٠-١٢].

قال الشوكاني رحمه الله: «فإن من
شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما
وعد الله به من البعث»^(٢)، كما قال تعالى:
﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف:
٢١].

إن هذه الحوادث والقصص كلها جاءت؛
لتدل على إحياء الموتى بعد مماتهم، وهذا
برهان قطعي على قدرة الله تعالى على
ذلك، وعبرة وعظة لمنكري البعث وتبصرة
وذكرى لكل عبد منيب.

٥. العدل والحكمة يستلزمان وجود اليوم
الآخر.

لم يخلق الله تعالى الخلق عبثاً ولن
يتركهم سدى، بل خلقهم لغاية معلومة وهي
العبادة؛ لتكون الدنيا دار عمل واختبار لهم،
فانقسموا على قسمين: قسم آمن وعمل
الصالحات، والقسم الآخر كفر وعصى
وعمل السيئات، ومن هنا فإن من حكمة الله
ومقتضى عدله وجود البعث ومن ثم الجزاء
للخلق بعد الموت؛ ليجزي كل واحد منهم

وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك
بضربه ببعض من تلك البقرة. وهكذا كان،
فعدت إليه الحياة؛ ليخبر بنفسه عن قاتله،
وليجلو الشكوك التي أحاطت بمقتله،
وليحق الحق ويطل الباطل بأوثق البراهين.
حادثة أمام العيان لم يكن الغرض منها إحياء
هذا الميت؛ ليكشف لهم عن قاتله فحسب،
بل ليكشف الله للقوم بأنه جعل ذبح البقرة
وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله في
إحياء الموتى بما شاهدوه من أمر القتل،
حتى يبلغوا من بعدهم قدرة الله تعالى على
الإيجاد والمعاد^(١).

ومن هذا الاستدلال أيضاً الذي دل على
إمكان إحياء الموتى. ما جعله الله تعالى
من آيات عيسى بن مريم في إحياء الموتى،
وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى،
وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ
لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ
وَأَلْبَسُكُمْ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا
تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ومن ذلك أيضاً ما أخبر الله عن قصة
أصحاب الكهف، إذ لبثوا وهم رقاد في
كهفهم مدة طويلة ثم بعثهم قال تعالى:

(٢) فتح القدير ٣/٣٢٨.

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/٧٩-٨٠.

الدنيا لا يؤمر ولا ينهى ويترك في قبره سدى دون أن يبعث؟! إن ذلك لا يليق بحكمة الله، فكل شيء يصدر عنه سبحانه له حكمة تقتضيه^(١).

وعدل الله لا يسوي بين من أحسن وأساء قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَنَّاهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قال ابن القيم رحمه الله: «لهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجهه»^(٢).

وحكمته تعالى تقتضي أن تكون هناك حياة ثانية بعد الحياة الدنيا، يقام فيها ميزان العدل الإلهي، وينال كل عامل جزاء عمله خيراً كان أم شراً، وهذا ما أكده القرآن وأشارت إليه آياته وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَأْتِيَةٌ أَكَادُّ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وغيرها من الآيات.

٦. القياس على المحسوسات كالنباتات.

ذكرنا -فيما سبق- أدلة على البعث وكانت أغلبها -إن لم تكن كلها- أدلة عقلية، وفي القادم نذكر بعض الأدلة الحسية من

الجزء الأوفى على ما قدم في الدنيا، فيثيب المحسن منهم ويعاقب المسيء، ولو لم يكن هناك بعث للخلق وحساب لهم على أعمالهم التي قدموها في الحياة الدنيا، لكان الخلق كله عبثاً باطلاً ولا تفتت صفة العدالة في حقه تعالى، وهذا أمر لا يتفق مع حكمة الله تعالى وعدله وهو مناقض ومعارض للعدل الرباني الإلهي؛ لأن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب؛ لبيان الطريق الموصلة إليه، وعليه فإن ذلك يستلزم الحساب والجزاء -كما سبق-.

وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين أن البعث ضرورة يقتضيهما عدل الله وحكمته وتقرر ذلك، منها قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ السَّالِفِينَ كَالْءَاخِرِينَ ۗ كَذَّبُوا مَا كُذِّفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

آيات ابتدأت المحاججة بالاستفهام الإنكاري؛ لنفي التساوي بين المسلمين والكافرين في الجزاء، وإبطال زعم الكافرين بالتساوي حينها. أي: لا يكون المسلمون كالمجرمين الكافرين في سوء الحال والمآل.

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥] ﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

فهل يظن عاقل أن يترك الإنسان في هذه

(١) انظر: المصدر السابق ٣/ ٥٩٢.

(٢) الفوائد، ص ٧.

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَيْنَا أَرْدًا لَعْمُرٍ لِكَيْلًا
يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَقَرَى الْأَرْضَ هَائِدَةً
فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَلْبَتَتْ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَّقِ
وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ
السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي
الْقُبُورِ ﴿٧﴾ [الحج: ٥-٧].

فهذا مثل ضربه الله تعالى بإحياء الأرض
بالنبات بعد إنزال المطر عليها كدليل آخر
على قدرته تعالى على إحياء الموتى، فكما
يحيي سبحانه الأرض الميتة التي لا نبت
فيها ولا ماء يحيي الله تعالى الموتى عند
البعث، فجعل الله سبحانه وتعالى إحياء
الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات،
وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من
القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك
آية ودليلاً على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع وأنه الحق المبين،
وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته
وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته
وأفعاله.

الثاني: أنه يحصي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة، وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور

كما أخرج النبات من الأرض (١).

واقع الإنسان الذي يعايشه تدل على صدق
البعث والنشور بعد الموت، أدلة حسية
ملموسة في الأرض والسماء، كتاب الله
المنظور، تأتي آيات القرآن الكريم - الكتاب
المسطور - لتعبر عنها بأبلغ بيان وأحسنه
وتقرها، أدلة جعلها الله لكل ناظر فيها
الفوز والنجاة، ومن هذه الأدلة الحسية التي
يشير إليها القرآن الكريم: الأرض اليابسة
القاحلة الميتة، ومنها أيضاً: النبات وغيرها
التي تأتي في مقام الاستدلال ومحااجة
الكافرين ومنكري البعث على أن الله تعالى
هو الخالق وحده لهذا الكون العظيم القادر
على إفناؤه، وهو وحده القادر على إعادة
الخلق بعد مماتهم في اليوم الآخر بعد فناء
الدنيا وزوالها، قال تعالى على لسان سيدنا
نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى معرفة
أمر البعث فيقول: ﴿وَاللَّهُ أَنْتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا
﴿٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:

١٧-١٨].

ومن آيات الاستدلال بالأدلة الحسية:
الأرض الميتة اليابسة التي لا نبات فيها
وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن
كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ
ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ
وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا
نُشِئُ إِلَيْكُمْ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ
لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْوَىٰ

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن

طريقة الناس في معرفتهم لنشأة هذه الحياة، أي: كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يحيي الموتى من قبورهم تصوير لكيفية انبعاث الحياة في الأبدان المودعة في القبور، بحال انبعاث الحياة في النبات المودعة في الأرض، بما يطراً عليهما من أحوال مختلفة من حياة وموت بطريقة متعاقبة.

ومن آيات الاستدلال أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْكَرَى الْأَرْضَ خَشِيعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّيْدِيَّ أَحْيَاهَا لَمُحِي الْمَوْقِعِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

آية يؤثرها التعبير القرآني بأسلوب الخطاب، وهو خطاب عام، والمعنى: ومن العلامات الواضحة والدلالات القاطعة على وجوده، وعلى البعث وأنه يحيي الموتى هذه الصورة المحسوسة. وأدخل المخاطب في جو الآية؛ لياشر رؤية هذا المشهد المليء بالحركة بعد السكون، فالإنسان المنكر للبعث يرى في كل زمان ومكان الأرض ﴿الْأَرْضَ خَشِيعَةً﴾ هكذا على سبيل استعارة الخشوع - وهو (التدلل) - لحال الأرض إذ كانت مقحطة يابسة لا نبات عليها.

وقد أوثرت هذه الاستعارة في هذه الآية، في حين وصفت الأرض في سورة الحج بأنها هامة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

قال ابن عاشور رحمه الله: «وهذا ارتقاءً في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل؛ لأنه استدلالٌ بحالة مشاهدة، فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان؛ فإن مبدأه غير مشاهد، فقليل في شأنه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾. ومحل الاستدلال من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾، فهو مناسبٌ لقوله في الاستدلال الأول: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت»^(١).

ومن الآيات التي تبين قدرة الله تعالى على البعث وتدلل عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسَبِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحِي الْمَوْقِعِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

وفي هذه الآيات يربط القرآن الكريم حقيقة الحياة الدنيوية لبعض مخلوقات الله وبين النشأة الأخرى، موضحًا ذلك على

القيم، ٣٠١/٨.

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٠٣.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِثِقَالٍ أُنزِلَتْ عَلَيْهَا مِائِمَاتٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَاسْتَخَرْنَا فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِىَّ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وفي هذه الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال الأرض والنباتات من موت إلى حياة، وسلب خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهدم وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك الخاصية، فلو كان مستحيلًا إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها؛ لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى. ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها؛ ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلى النبات بالمطر وإعادة بناء الأجساد وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث وهو مطر كمني الرجال فتنبت منه الأجساد. ولهذا يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ﴾ [الرعد: ٥].

إشارة إلى أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث ومعناه: إن كان لك عجب

وَرَبَّتْ﴾، وهي صفات إنسانية أضفاها التعبير القرآني على الأرض، فأخرجها بهذه الصورة الموحية المؤثرة، والصفتان تعبران عن معنى واحد، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجذب وفقدان معالم الحياة.

ويتناسب اختيار الصفتين مع هدف الآيات في عرض قدرته تعالى على إحياء الأرض وهو إثبات البعث والنشور وإحياء الموتى، فكما أن الأرض ﴿خَشِيعَةٌ﴾ و﴿هَامِدَةٌ﴾ لا حياة فيها ولا روح قبل نزول الماء عليها، كذلك ﴿المَوْتِىَّ﴾ هامدون، وكما تستجيب الأرض الميتة وتهتز وتربو وتدب الحياة فيها بسبب الماء النازل، كذلك فإن الله الذي أحياها لمحيي الموتى، فالآيتان ذات دلالة شاملة من خلال اقترانهما بالسماء والأرض، وبذلك تحقق شمول العبرة لكل كائن على الأرض، وتحقق نعمة الهداية، فضلاً عن أن حيوية الصورة قائمة بتجدها واستمرارها؛ لأن إنزال الماء على الأرض عملية مكررة مع الزمان والمكان، فهي قائمة ما دامت السموات والأرض، شاهدة على قدرته تعالى، يعتبر بها جيل بعد جيل، ولا بد من ملاحظة التناسب والانسجام بين الفكرة المراد إثباتها وبين الاستعارتين، فهو تناسب وتأليف محكم^(١).

(١) انظر: الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، ص ١٤٢ و ٢٢٣-٢٢٤.

للحياة، فإذا أوقدت به النار دبت فيه الحركة واضطرب، وهذه آثار الحياة، فمن قدر على هذا قادر على إحياء الموتى، وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل في موضع آخر في معرض الاستدلال على ألوهية الله وربوبية، وإثبات البعث والحساب، ومحااجة منكريه، وإبطال اعتقادهم الفاسد في سورة الواقعة، فبعد أن أكد سبحانه البعث إجمالاً في معرض الرد على الكافرين في قوله تعالى:

﴿وَكَاذِبًا يَبُولُونَ آيِدًا يَمْتَنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا
أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٥٧﴾ أَوَّاهَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ
إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٥٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٧-٥٠].

يرجع السياق لإثبات البعث بمحااجتهم بما يرونه بأعينهم من أدلة وبراهين ثابتة فيبدأ سبحانه بقوله: ﴿لَمَنْ خَلَقْتُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧].

وهذه الحقيقة لا ينكرها مشركو العرب، فهم كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو الخالق، فخطابهم تقريباً لهم بأن من خلقهم أول مرة سيعيدهم إلى الحياة بعد الموت، وهذا ما يدل عليه حذف مفعول الفعل ﴿تَصَدَّقُونَ﴾ أي: بالبعث والحساب. ثم تأتي الآيات لتعقد حواراً مع الكافرين لمحااجتهم عن طريق الاستفهام؛ لبيان عظمة الله تعالى وقدرته في هذا الكون وصولاً إلى تقريرهم وإثبات البعث وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا

من شيء فمن إنكارهم البعث، فاعجب؛ لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، وليس البعث مما ندر، وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله، والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدييره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى.

ومن طرق الاستدلال التي تبين قدرة الله تعالى على البعث وتدلل عليه بدليل واقعي حسي: (إخراج النار من الشجر الأخضر) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٣٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَىٰ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٣٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴿٤٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَّٰنٌ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٢﴾ فَسُبْحٰنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ سَمَوٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

فهذه الآيات تدلل على البعث عن طريق الشجر المقطوع لإيقاد النار، فالشجر إذا قطع وأصبح حطباً يكون ميتاً وليس فيه أثر

النوم واليقظة) باعتبارهما نموذجًا متكررًا للموت والحياة للإنسان؛ لأن النوم هو في الحقيقة موت أصغر؛ إذ إن كلاً منهما عبارة عن انسحاب من الحياة وتوقف الأعضاء عن أداء مهامها، على درجات متفاوتة بينهما، واليقظة شبيهة بالبعث؛ إذ إن كلاً منهما يعني عودة الأعضاء إلى أداء وظائفها مع اختلاف بينهما في الدرجة.

وجاء هذا الاستدلال في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ إِلَيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالْأَيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثْكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦١) وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رُسُلُنَا وهم لا يفرطون ﴿[الأنعام: ٦٠-٦٢].

آيات وإن كانت خبرًا من الله تعالى عن قدرته وعلمه، فإن فيها احتجاجًا على المشركين به الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم، وبعثهم بعد فنائهم (٢). فدلّت بذلك على إمكان البعث والحشر؛

تَمُوتُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ءَأَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تَبْدَلَ أَمْتَكُمْ وَنُنشِقْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ءَمْ نَحْنُ الْزَارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ ءَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمْتُمَا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿[الواقعة: ٥٨ - ٧٤].

ويلاحظ على الآيات أنها أدرجت ضمن منظومة قرآنية تميزت بوحدة الموضوع والسياق والأسلوب، حتى إنها تمخضت عن قاعدة أسلوبية في أدب الحوار والاستدلال، الاستدلال على قدرة الله تعالى على الخلق، والتصديق بحقيقة البعث، ولقد أتى الاستدلال بالنعم وفق تسلسل منطقي؛ إذ ابتداءً بذكر المتنعم بالنعم نفسه وهو الإنسان، فقدم بذكر خلقه، وأعطاه الأهمية والأولية، ثم ذكر النعم المسخرة له (١).

ومن الأدلة على إمكانية البعث وطرق الاستدلال الواقعية الحسية عليه: (ظاهرة

(١) انظر: آيات الأنواء الجوية في القرآن، أحمد عامر سلطان، ص ١٢١.

(٢) انظر: جامع البيان ١١/٤٠٦.

إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين^(٢). وعن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه قال: (اللهم باسمك أحياء، وباسمك أموت) وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور)^(٣).

لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى، ولذلك ناسب تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

أي: في معرفة حقيقة ما بين الموت والحياة واليقظة والنوم من المناسبة، فإذا جهلنا حقيقة النوم وكيفية حصوله رغم بساطته ورغم تعاقبه والتصاقه بحالنا، فمن باب أولى ألا ندرك سر الإحياء وحقيقته، فكم في الكون أشياء لا يدرك العبد -على بساطتها- حقائقها لما أودع الله فيها من الأسرار والكوامن ما يقف الإنسان عندها مستسلمًا مستضعفًا نفسه مستصغرًا تفكيره مؤمنًا موقنًا، مع ما في ذلك من منافاة الإيمان بالغيب^(١).

ومثل هذا الاستدلال جاءت آيات كريمات أخرى. والنبي صلى الله عليه وسلم حول بمنهجه الإصلاحية هذه الحقيقة إلى أمر واقعي يستشعره المرء المسلم كل يوم صباحًا ومساءً، - فيتذكر الموت والبعث ولا يغفل عنهما البتة، بقوله صلى الله عليه وسلم أمرًا صحابته رضي الله عنهم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: (إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٣٢٠، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة قبل النوم، ٧٠/٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٧١١، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ٢٠٨٣/٤.

(١) انظر: منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت، منظور بن محمد رمضان ص ٩٢.

أبرز أحداث اليوم الآخر

أولاً: أحداث كونية:

١. تصدع الكون وتبديله.

فصل القرآن الكريم في مشاهد اضطراب النظام الكوني وتداعيه في اليوم الآخر، فعرض المشاهد الأولى له وشخصها بكل دقةٍ للسامع تشخيصاً بيناً دقيقاً، وصور حال الأرض والسماوات حينها، وكيف تتبدل صورتها وتتغير عما هي عليه في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وذكر ما يحل بالكون من خرابٍ ودمارٍ وتغييرٍ لمعالمه، وسنحاول جهد الإمكان عرض هذه المشاهد بحسب وقوعها وترتيبها الزمني، وإن كانت بعض هذه المشاهد متداخلة فيما بينها، ومن أولى المشاهد التي تحصل ما جاء في قوله تعالى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۗ (١) لَيْسَ لِقَوْمِنَا كَذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَنُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ١-٧].

فهذه آياتٌ تصور حال الكون، وما يجري فيه من تغييرٍ واضطرابٍ عند قيام الساعة، صورةً كلها تهويلٌ وتفخيمٌ لهذا

اليوم، والتهويل يتجلى من المطلع، إذ يبدأ بـ﴿إِذَا﴾ الشرطية؛ لشد ذهن السامع إلى ما بعدها مع حذف جوابها، وفي هذا الحذف تحقيقٌ لدلالة التهويل والتفخيم؛ إذ يترك لخياله ونفسه أن يذهباً في تخيله وتصوره كل مذهب، وكأن هذا الجواب لا تحيط بوصفه الألفاظ والعبارات. ويبين سبحانه ما يحل على الأرض من دمارٍ عند وقوعها، فيقول مكرراً: ﴿إِذَا﴾ لزيادة التهويل والتفخيم في: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَنُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾، فالأرض سترج حتى تهدم الجبال الرواسي وتكون أثرًا بعد عين، أي: أصبحت الجبال بعد هذا البس كالغبار المنثور المتطاير، تشبیهً زاد من تهويل هذا اليوم وفضاعته، وللدلالة على تحقق هذا الأمر بالرج والبس أكدت الأفعال بمصادرهما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾، و﴿وَنُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾^(١).

وهذا التحريك والتسيير للجبال جاء مرافقاً لمشهد اضطراب السماء وتموجها في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَمْرًا (١) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩-١٠].

مشهدٌ يصور السماء وهي تتموج وتضطرب، والجبال تتحرك من مكانها وتسير؛ لتثول إلى هباءٍ منبثٍ. وفي موضع

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٨٤.

تصوير حال السماء والأرض، ويلاحظ أن أكثرها بدأ بـ ﴿إِذَا﴾ الشرطية مع حذف جوابها للاهتمام بما بعدها، وشد ذهن السامع إليها، مع تقديم المسند إليه بعدها، هذا التقديم الذي يحدث تهويلاً قد لا نجده في تأخيره، ويهز المتلقي ويلفته إلى أمر غريب لم يحصل مثله في الدنيا، فالسمااء لم يسبق لها أن انفطرت أو انشقت، ولا الكواكب اندثرت أو انكدرت، ولا البحار سجرت أو فجرت، وغيرها من الأحداث الغريبة غير المألوفة (٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَفَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَطَخَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَفَّتْ ⑤﴾ [الانشقاق: ١-٥].

وبالأسلوب نفسه نجد أن مشهد الخراب يأتي على الكواكب والبحار في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكُوكَبُ انثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ③﴾ [الانفطار: ١-٣].

ويتوسع القرآن في بيان مشاهد التغير والخراب في الكون في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ⑧﴾

آخر نجد تشبيه الجبال الرواسي بعد هذا الرج والبس بالصفوف المنفوش في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

فالجبال تصبح كالصفوف المتناثر هنا وهناك، صورة تشبيهية تبين هشاشة الجبال وتفتتها يوم القيامة حتى تغدو كالصفوف المتناثر المتطاير. ومشهد نسف الجبال وبيان حالها تكرر في القرآن الكريم في أكثر من موضع.

وفي موضع آخر نقرأ آيات كريمات تصف ضعف وهوان الدنيا التي ما إن ينفخ في الصور حتى تذهب زيتها وتنتهي، وتهدم معالمها وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَفَجَّهَ وَجِدَةٌ ⑬ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَةٌ ⑭ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ⑮ وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِبَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣-١٦].

آيات كريمات تنقل مشاهد اليوم الآخر وتركز على تصوير أحداثه لا ذكر محدثه، حتى ليخيل للمرء أن هذه الأشياء منقادة انقياداً إلى سرعة الاستجابة للفعل، فتتخلع الأفتدة وترتعد الفرائص من هول ما يحدث آنذاك ترهيباً وتخويفاً (١).

وتتنوع مشاهد الاضطراب الكوني في

(٢) انظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد أحمد عيسى العامري، ص ٨٢.

(١) انظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، أحمد محمد سعد، ص ٢٦٥.

٢. النفخ في الصور.

من مشاهد الأحداث الكونية النفخ بالصور فيكون البعث والنشور بعدها. والصور قرن كالبوق، يأمر الله تعالى إسرافيل عليه السلام أن ينفخ فيه النفخة الأولى وهي نفخة الصعق، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم يأمره أن ينفخ النفخة الثانية وهي نفخة البعث، فإذا الخلائق قيام ينظرون، ويمثل البعث والنشور أول مراحل اليوم الآخر.

وقد تنوعت مشاهد البعث في التعبير القرآني فبينت مشهد النفخ في الصور ومشهد بعث الناس من قبورهم استعدادًا لحسابهم، مع وصف حال الناس وهم يستقبلون النداء والتركييز على حال الكافرين حينئذ، والنفخ في الصور هو أول مراحل اليوم الآخر، والصور هو الناقور كما سماه الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨].

ومما جاء في بيانه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَقْوَمٍ دَخِيرٍ﴾ [النمل: ٨٧].

وهذه هي النفخة الأولى التي تقضي على الخلائق كلها إلا ما شاء الله تعالى فبعد أن

يَأْتِي ذَنْبٍ قِيلَتْ ① وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ② وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ③ وَإِذَا الْجَبَابِغُ سُعِّرَتْ ④ وَإِذَا الْجِنَّةُ أُنزِلَتْ ⑤ عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿ [التكوير: ١٤-١].

فهذه آيات تصور ما يحل بالكون من اضطراب وتحويل يمس كل أركانه، ذلك التغير العنيف المتمثل في طمس الأنوار، واندثار النجوم، وتسيير الجبال، وتفجير البحار وغيرها من صور الخراب الذي شمل كل شيء في الأرض والسماء.

وتتغير الألفاظ ويبقى الأسلوب نفسه في عرض مشاهد الاضطراب في هذا النظام في قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ① فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ② وَالنَّشِيرَاتُ تَشَارًا ③ فَأَلْفَرِقْنَ فَرَقًا ④ فَأَلْمِيقِنَ ذِكْرًا ⑤ عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ ⑦ فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ ⑩ وَإِذَا الرَّسُلُ أُنزِلَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑬ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ⑭ وَبَلِّغْ يُوسُفَ لِلْمَكْدِيِّينَ﴾ [المرسلات: ١-١٥].

فآيات تصور مشهد الاضطراب في النظام الكوني، المتمثل في تلك الحركة العنيفة التي تجتاح كل شيء، وتثير كل شيء، فتطمس النجوم، وتنشق السماء، وتسف الجبال، فتتلاشى الثوابت، ويحل الروع محل الأمن في الأرض، والصخب محل السكون.

فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٣﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

وغيرها. فما هي إلا نفخة واحدة والكل واقف: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

فبعد النفخ الثاني في الصور تعود الأرواح إلى أجسادها، ويحيا الناس، ويخرجون من قبورهم ويقومون لله رب العالمين للحشر والحساب. هذه النفخة الشديدة على الكافرين - كما سيأتي بيانه - والذي عبر عنه القرآن بـ: ﴿فَإِذَا نَفَخْنَا فِي السُّورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٨-١٠].

«والنقر في الناقر هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور، ولكن التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه؛ كأنه نقر يصوت ويدوي، والصوت الذي ينقر الأذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الأذان، ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين»^(١).

٣. الإنبات من القبور.

بعد أن بينا فيما سبق المراحل التي تسبق الإنبات من القبور، والتي تتمثل في تداعي الكون والنفخ في الصور، تطالعنا آيات كريمات تبين الكيفية التي يخرج بها الناس من قبورهم لأرض المحشر؛ لاستقبال حسابهم بعد النفخة الثانية، وقد ذكر ذلك في عدد من الآيات المباركات متخذاً من

يأمر الله تعالى الملك إسرافيل عليه السلام بالنفخ الأول في الصور فينفخ فيه، فعندها يهلك جميع الناس والجن والحيوانات على وجه الأرض، وبذلك تجمع الأرض وتضم في طياتها وفي بطنها وعلى ظهرها جميع أحيائها أمواتاً لا حي فيهم.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه النفخة المهولة بأكثر من تعبير ووصف منها النفخة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخْنَا فِي السُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣].

ومنها الصيحة في قوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

ومنها الراجفة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧].
والزجرة في قوله: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣].

ثم تأتي بعدها النفخة الثانية بعدما يشاء الله بذلك بعد الأربعين، ويصف فيه الحق تعالى بعث الناس ونشورهم عند سماع النفخ في الصور في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولُوكُنَّا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقِدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥١-٥٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٥.

مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٣﴾
ويخرجون حفاةً عراةً غرلاً خائفين ﴿٤٤﴾
أَبْصَرُهُمْ رَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ ﴿٤٥﴾ [القلم: ٤٣].

وهذا ينبىء أنهم يخرجون من القبور في كرب شديد وهول عظيم مفرع. وقد تناولت آياتٌ عديدةً من القرآن الكريم أحوال الناس وطريقة بعثهم، وصورهم، حركاتهم وقسماتهم بكل دقةٍ تتناسب مع هول ذلك اليوم وشدته، تلك الحركات الدالة على الهول والفرع والاندهاش مما رأوه من اضطراباتٍ كونيةٍ، وأحوالٍ حلت بالأرض وبهم بعد البعث، راسمةً صورهم بدقةٍ مما يجعل المتلقي وكأنه يعيشها، مركزةً على مشاهد الكافرين من انكسار أبصارهم وخشوعها ذلاً وهواناً، وحركاتهم التي تثير الفرع والتخوف، ومقابلتهم بأحوال المؤمنين آنذاك في بعض المواضع.

ومن آيات القرآن في بيان الخروج من القبور قوله تعالى: ﴿قَتُولَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ ﴿٦﴾ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَصِرٍ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦-٨].

فلاآيات تصور مشهد بعث الكافرين المنكرين للأخرة من قبورهم وعليهم ثياب الذل والهوان، مسرعين إلى الداعي رغم

التشبيه والاستعارة أدوات في التعبير عن ذلك، راسمةً لنا صورة مادية تتجسد فيها عناصر الدهشة والإسراع والذهول من هول ما يرون. والناظر في أغلب المواضع التي ذكرت فيها هذه الكيفية يجد أن التعبير القرآني يركز في أكثرها على الكافرين ومنكري البعث.

قال تعالى واصفاً هذا الخروج: ﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بَنِيَّانَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥١-٥٢].

فبعد النفخة الثانية يخرج الناس وينبتون من قبورهم كما ينبت البقل كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما بين النفختين أربعون) قال: أربعون يوماً؟ قال: (أبيت)، قال: أربعون شهراً؟ قال: (أبيت)، قال: أربعون سنة؟ قال: (أبيت)، قال: (ثم ينزل الله من السماء ماءً، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلَى، إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة) (١).

وينقسم الناس إلى صنفين: صنف يقول: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ وصنف يقول: ﴿هَذَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٩٣٥، كتاب التفسير، باب (يم ينفخ في الصور)، ١٦٥/٦.

في الآية «كنايةً عن الذلة والانخزال؛ لأن ذلة الدليل، وعزة العزيز تظهران في عيونهما»^(٣).

وهذا تصويرٌ لهم في غاية الذل والانكسار، صورةٌ تبين حالهم المهين في الآخرة بعد أن كانوا يرفعون رؤوسهم تكبراً على المؤمنين في الحياة الدنيا، وللاهتمام بإظهار هذه الصورة والتركيز عليها قدم الحال ﴿خَشَعًا﴾ على عامله ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ تقديمٌ صور غاية ذل الأبصار وخشوعها، ولو تأخر الحال، لفات هذا التصوير الفني لهيئة الأبصار^(٤).

وفي «الجراد مثلٌ في الكثرة والتموج، يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد منتشر في كل مكان؛ لكثرتهم»^(٥)، تشبيهُ يصور حالهم على كثرتهم وتماوجهم وهم حيارى فزعين منتشرين هنا وهناك يستتر بعضهم ببعض من شدة الخوف.

وهذا التشبيه يتناسب مع آخر السورة نفسها في قولهم في الدنيا: ﴿مَنْ جَمَعُ مَنَصْرًا﴾، وما أشبه الجيش الدليل المنهزم بالجراد المنتشر هنا وهناك بعضه فوق بعض.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/٤٣٢.

(٤) انظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم ص ١٢٧.

(٥) الكشاف ٤/٤٣٢.

أنوفهم. مشهدٌ مختصرٌ سريعٌ، لكنه شاخصٌ متحركٌ، مكتمل السمات والحركات، وهو متناسقٌ مع أول السورة: ﴿أَفْتَرَبِ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمْرُ﴾ [القمر: ١].

ومع الجو والإيقاع العام للسورة، مشهدٌ يصور هذه الجموع الخارجة من قبورها في لحظةٍ واحدةٍ كأنها جرادٌ منتشرٌ^(١).

ومع أن المؤمنين والكافرين يتساوون في هذا الخروج من الأجداث، من تملك الهول منهم حينها حتى يؤمن الله تعالى من يشاء من المؤمنين في أرض المحشر، وهذا ما يدل عليه حذف مفعول الفعل ﴿يَدْعُ﴾؛ لإفادة العموم. وخص الكافرون بهذا الخطاب؛ تهديدًا لهم وتوبيخًا. والداعي هو إسرائيل عليه السلام يدعو الناس ويناديهم للقيام إلى الحساب بعد النفخة الثانية، هذا المشهد المهول المفزع الذي يدل عليه التنكير في قوله تعالى: ﴿شَيْءٌ نُّكِّرٌ﴾، أي: شيء عظيم مهول^(٢).

وقد تعاضدت الفنون البيانية من تشبيه ومجازٍ وكناية في رسم صورة هؤلاء المجرمين وهم يقومون للحساب منخذهين مذعورين في ذلك اليوم العصيب؛ إذ يبعثون من قبورهم منكسي رؤوسهم، أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها ذلاً وهواناً، فالخشوع

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص ٥٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/٣٢٢.

الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانْتُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشَعَةً أَنْصُرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿المعارج: ٤٢-٤٤﴾.

فهذه آياتٌ ترسم صورةً تهكميةً لهؤلاء الكافرين عند بعثهم للحساب، صورةٌ تتناسق مع ما كانوا عليه في الدنيا حين يسرعون إلى الأنصاب يعبدونها، فجاء التعبير بتصوير حالهم في الآخرة كذلك؛ ليكون التعبير أشد إغالاتاً في السخرية والتهكم^(٢).

ومثل هذه الآيات أيضًا تطالعنا آياتٌ كريماتٌ في وصف البعث في معرض تسليية النبي صلى الله عليه وسلم من تكذيب الكافرين بدعوته صلى الله عليه وسلم؛ لتقرر حقيقة البعث، وتصور حال خروج منكبيه حينها، في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤْتِيهِمْ وَالْإِنَّا أَلْمُصِيبُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤١-٤٤].

آيات تصف حال الناس يوم ينفخ في الصور وينادي فيخرج الناس من قبورهم، ولتهويل هذا اليوم وحال الناس فيه وتفظيحه حذف مفعول ﴿وَأَسْمِعْ﴾ إيجازاً، والتقدير: واستمع لأحوال الآخرة التي أخبرك بها^(٣).

(٢) انظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص ١٨٧.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي

وأوثر التعبير بالانتشار مع جعله اسم فاعل في قوله تعالى: ﴿مُنْتَشِرًا﴾؛ لإبراز صورة الجراد وشدة اندفاعه عند بداية انتشاره، وتلك صورة المجرمين عند خروجهم ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾. ومما عمق معنى الذل والهوان المضروب عليهم كونهم ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ فهم يمشون وجلين بسرعة مشية الخائف المدعور إلى داعيهم، وهم يقولون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

وبهذا تواشجت فنون البيان في تقريب صورة بعث الكافرين من قبورهم إلى الأذهان بتشبيهم بالجراد المنتشر وهم أذلاء منكسرين عليهم ثياب الفزع والخوف. وفي «إسناد القول ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ إلى الكفار تلويحٌ بأنه على المؤمنين ليس كذلك»^(١).

فهم ليسوا في تلك المرتبة من الفزع والشدة، بل هو يسيرٌ عليهم بأمر الله تعالى. ومما يدل على عسر ذلك اليوم على الكافرين خاصةً دون المؤمنين الموحدين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْوَامِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ يَمِيزُ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ يَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٨-١٠].

وإذا انتقلنا إلى موضع آخر نجد أن التعبير القرآني يصور الكافرين عند بعثهم من قبورهم للحساب بسخرية وتهكم في قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ خُمُوضًا وَّيَلْبُؤًا حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ﴾

(١) روح المعاني، الألويسي ١٤ / ٨٠.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾، والمراد بالحق: الوعد الصادق وهو الحشر، وسمي حقاً؛ إبطالاً لمزاعم المشركين بأنه افتراءٌ واختلاقٌ، إذ كانوا يسمونه سحرًا، ويعدونه خيالاً، فيعلمون آنذاك أن الواقع قد يطابقه، فكان حقاً فإنه قد طابقه الواقع، فكان الإخبار به صدقاً.

فكان الإخبار به صدقاً. إذا كانت المواضع السابقة جاءت ردًا على المشركين في إثبات البعث وكيفية قيامهم من القبور إلى الداعي، فإن هناك ثمة آياتٍ تصور الناس جميعًا عند بعثهم، وهي وإن كانت جوابًا عن سؤال الكافرين عن البعث، إلا أن الجواب كان عامًا في بيان بعث الناس كلهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتِنَا﴾ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ﴿النَّبَأُ: ١٧-١٨﴾.

وأنت هذه الآيات تفصيلًا للإجمال الوارد في أول السورة ﴿عَمَّ يَسْأَلُونَ﴾ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مَخْلِقُونَ ﴿النَّبَأُ: ١-٣﴾.

فجاء التكرار ﴿لَا سِعَالَمُونَ﴾ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سِعَالَمُونَ ﴿النَّبَأُ: ٤-٥﴾.

لردعهم وتهديدهم وبيان أنهم سيرون حقيقة وسيعلمون حينها أنه حق، وأوثر التعبير في الآية بـ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٨٧.
(٢) انظر: الإبداع البياني ص ٤٢٧.

مِيقَاتِنَا﴾ دون قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ للدلالة على أنه «كان في تقدير الله تعالى وحكمه حدًا توقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدًا للخلافتن يتتهون إليه»^(١).

فهو واقعٌ لامحالة ولكن شاءت حكمته تأخيره إلى وقتٍ معلوم. ومن الآيات التي تصور حالهم وضعفهم وهوانهم بتشبيهم في أرض المحشر بالفراش المبيثوث وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿الْقَارِعَةُ: ١-٤﴾.

فالناس حينئذ يكونون كالفراش المتفرق، المتشتر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض من شدة الاضطراب والفرع، فشبه الناس بالفراش المتطاير في كثرتهم، وانتشارهم، وذلتهم، وضعفهم، واضطرابهم^(٢).

وفي مواضع أخرى تأتي لمحات سريعة لأحوال الناس في ذلك اليوم العصيب. وفي المعنى نفسه نجد آيات كريمات أخرى تصور حالهم.

ثانيًا: أحداث في الحشر:

من أحداث اليوم الآخر الحشر وأحوال الخلق فيه حينها، وقد تناولت آيات عديدة من القرآن الكريم طريقة الحشر، وصورهم

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٨٧.
(٢) انظر: الإبداع البياني ص ٤٢٧.

فلا تخفى جمالية المقابلة في اختيار الألفاظ المناسبة لكلا الحالتين. وحشر المؤمنين والكافرين إلى مصيرهم تكرر في سورة مريم.

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم زرقاً) كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۗ يَخْفَتُونَ لِيَنفِتَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۗ﴾ [طه: ١٠٢-١٠٣].

يصور المشهد المبارك المجرمين وهم يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم أو زرق العيون من شدة العطش أو من العمى، يتخافتون بالحديث لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول والرهبة المخيمة على ساحة الحشر، وفيهم يتخافتون؟ إنهم يحاولون تقدير المدة التي قضوها في الدنيا أو في القبور، فيقولون لم نلبث إلا عشر ليال، ويقول أصوبهم رأياً: ما لبثتم غير يوم، فيستوي في ذلك التخبط الناتج عن المفاجأة الجاهلون والعالمون^(٣).

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم عمياً على وجوههم) لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكَمَا وَصَّأُ مَاؤُهُمْ﴾

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/٣٠٤، ٣٠٦، مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص ١٠٤.

في أرض المحشر، بكل دقة وبيان، تلك الطرق الدالة على مكانة كل صنف منهم حيثئذ، ومن ذلك حشر المتقين والمجرمين في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَقَدًّا ۗ وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ۗ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

فالأيتان تصوران مشهد حشر المؤمنين والكافرين وحالهم، فالمؤمنون المتقون يحشرون ﴿وَقَدًّا﴾ مكرمين إلى جنة ربهم بعزة وكرامة، أما الكافرون المجرمون فيساقون سوقاً شديداً إلى جهنم، عطاشاً محرومين من الماء، كالبهائم العطاش^(١).

وبهذا الأسلوب قابل بين مصير الفريقين بأبلغ بيان. إذ عدى ﴿نَحْشُرُ﴾ بـ﴿إِلَى﴾ تعظيماً وتبجيلاً للمؤمنين، وذكر صفة الرحمة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ التي خص المؤمنين بها إكراماً لهم؛ إذ إن لفظ الحشر يوحي بالجمع من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة على سبيل القهر، فجاء لفظ: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ مؤذن بأنهم يحشرون إلى من يرحمهم، كما أن لفظ الوفد مشعرٌ بالإكرام والتبجيل كما يفد الوفاد إلى الملوك منتظرين الكرامة عندهم، وفي جانب المجرمين استخدم لفظ السوق الذي فيه إزعاج، ومما زاده تعظيماً هو تعديته بـ﴿إِلَى﴾ تشبيهاً لحالهم ومكانهم^(٢).

(١) انظر: الجامع لإحكام القرآن ١١/١٥٣.
(٢) انظر: الكشف، الزمخشري ٤/٣٢، البحر المحيط، أبو حيان ٧/٢٩٨.

فرب العزة سبحانه وتعالى أقسم بنفسه الكريمة أنه يحشر الكافرين منكري البعث، وأمثالهم مع الشياطين ومعبوداتهم الباطلة التي كانت تضلهم في الدنيا، وأنه يحضرهم حول جهنم جاثين على ركبهم ذلاً وهواناً.

وقد رسم القرآن الكريم في مواضع أخرى متفرقة صفات الناس وقسماتهم في أرض المحشر، وجوههم، أبصارهم، لسانهم، وغيرها، ومما جاء في بيان وجوه الناس بشكل عام تصويرها وهي قد ذلت وخضعت لله تعالى قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

ومنها أنه حينئذ تبيض وجوه وتسود وجوه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَسَوْدٌ وُجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضتْ وُجُوهُهُمْ فبِئْسَ رَحْمَةً اللَّهُ لَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

فالآيتان تصوران مشهداً من مشاهد القيامة؛ إذ نرى فيه مظهرًا عجباً، نرى وجوهاً مبيضة ووجوهاً مسودة وهذا مشهدٌ حسي، ولكنه منبعثٌ عن تأثر نفسي، ألقى ظله على هذه الوجوه فايضت، وعلى تلك فاسودت، وهذا وذلك زيادة في العذاب والنعيم وفي

جَهَنَّمَ كَلِمًا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾
ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا
كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾
[الإسراء: ٩٧-٩٨].

وغيرها من الآيات. آيات تصور الكافرين المجرمين وهم يحشرون بذلٍ وهوانٍ على وجوههم عمياً لا يرون، وبكماً لا يتكلمون، وصماً لا يسمعون، يحبس أولهم على آخرهم، فيساقون إلى النار مجتمعين. وحشر الكافر أعمى يمشي على وجهه جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: (أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟) (١).

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم مع أوثانهم وشياطينهم وهم جاثون على الركب) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ [مريم: ٦٨-٦٩].

وقوله تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٣) ﴿مِن دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٢٣، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، ١٠٩/٨.

هذه المقابلة بين الفريقين التي أظهرت البون الشاسع بينهما، فالمؤمنون وجوههم مشرقة مبتسمة، وهذا يدل على الأمن والطمأنينة، والكافرون وجوههم عابسة مظلمة، وهذا يدل على خوفهم وذعرهم ويأسهم، فهم فريقان مختلفان، وهذا ما يدل عليه التنكير المستفاد منه التنوع في ﴿وَجُوهٌ﴾.

وفي الآية تكريم عظيم من الله لعباده المؤمنين في أرض المحشر يوم القيامة، فهو يزيد لهم الفضل والنعم بعد تبييض وجوههم في أرض المحشر بالنظر إلى وجهه الكريم عياناً كما ترى الشمس في النهار إذا كان الجو صحواً كما دلت على ذلك النصوص التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة. وهكذا رسم القرآن الكريم في الآيات السابقة بمجموعها صورة تقابلية بين بياض ونضارة وجوه المؤمنين، وسواد وكلاحة وقمامة وجوه الكافرين، وفي الجمع والموازنة بينها يتجلى البون الشاسع بين منزلة المؤمنين والكافرين في أرض المحشر، ففريق المؤمنين يحشرون في أجمل صورة وأكرمها، وقد ملأت الطمأنينة والفرحة نفوسهم - فالبياض علامة لهم يوم القيامة - فوجوههم بيضاء مشرقة ضاحكة مستبشرة إلى ربها ناظرة.

التحقير والتكريم^(١). وخص الوجه بالذكر دون سائر الجسد؛ لأنه أول ما يرى من الإنسان، ولأنه أشرف الأعضاء في الجسد. ولهذا نرى التركيز عليه في وجوه الكافرين خاصة مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وفي سورة عبس نعاين صفاتٍ أخرى في الوجوه، وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين، زاد فيها على بياض الوجوه النور والإشراق والضحك والاستبشار مما دل على الأمن والطمأنينة ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يُّؤَمِّدُ مُتَسِفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وأضاف إلى وجوه الكافرين المسودة غباراً دالاً على الكآبة واليأس والخوف في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يُّؤَمِّدُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجِرَةُ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢].

وفي آيات أخرى نرى تقابلاً بين وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين من حيث النظر إليه سبحانه وتعالى وعدمه في قوله: ﴿وَجُوهٌ يُّؤَمِّدُ نَاصِرَةٌ ۖ تَإِثْرُهَا نَاصِرَةٌ ۚ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ۚ وَجُوهٌ يُّؤَمِّدُ بَاسِرَةٌ ۚ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥].

(١) انظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص ٢٠٣.

كَاتَمْتُمْ إِلَى نُصُوبٍ يُوفُضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيمَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ
ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ [المعارج: ٤٢-٤٤].

وقد سبق بيان هذه الآيات.

وقد صور القرآن الكريم حالهم وملابسهم ووجوههم معاً، حالهم ذليل، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَقَشَّىٰ وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥١].

وصورهم وهم صامتون لا يتكلمون في قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِيمَنْ دَرَبُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُنَا وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لِكُرْهِدٍ فِكِيدُونَ ﴿٣٩﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٩].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ نَرَابًا ﴿٤٠﴾ [النبا: ٣٧-٤٠].

مشهدٌ يصور حال الهلع والذعر مما يرى، والندم على ما قدم، عندما يرى قضاء الله تعالى في البهائم قبل حسابهم فيتمنى أن

بخلاف الكافرين الذين يحشرون سود الوجوه في أشبح صورة وأذلها، فوجوههم سوداء مظلمة عليها غبرة ترهقها فترة لا تنظر إليه سبحانه بل هم في النار خالدون.

ومما جاء في وصف الكافرين في أرض المحشر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ [السجدة: ١٢].

آية ترسم صورة المجرمين وهم منكسوا الرؤوس يوم القيامة، لا يرفعونها من عظيم الخزي والذل الذي يشعرون، ويحكي بعد ذلك قولهم الدال على إقرارهم بعد أن شاهدوا بأعينهم وسمعوا بأذانهم بأن الآخرة حق وما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام حق، فيتمنون أن يعيدهم الله إلى الدنيا لتكون الفرصة الأخيرة لهم، ولكن بعد فوات الأوان.

وقد صور القرآن الكريم أبصار الكافرين في أرض المحشر، صورها وهي ذليلة مهانة، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكْرٍ ﴿٦﴾ خَشِيمًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَيْرٌ ﴿٨﴾ [القمر: ٦-٨].

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ خَوْسُوفًا وَيَتَّبِعُوا حَقَّ يَلْقَاؤِ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا

يكون ترابًا كالبهائم لسوء ما قدمت يدها من خزي ينتظره حسابًا وجزاءً.

وإذا انتقلنا إلى موطن آخر نجد آيات تصور الهول الذي يعم كل إنسان في أرض المحشر حتى يفصله عن محيطه ويجعله يفر من كل قريبٍ وحبيبٍ له في الدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ (٣٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَدِيقِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَدَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ﴾

[عبس: ٣٣-٤٢].

مشهدٌ يصف أهوال القيامة التي تصل إلى مشاعر الإنسان الوجدانية المرتبطة بأقرب الناس إليه، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هول ذلك اليوم فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)^(١)؛ لأن ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، فالكل مشغولٌ بأمره ولا يدري عن حال غيره شيئاً. ويلاحظ أنه تدرج في ذكر من يفر منهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٨٥٩، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان المحشر، ٤/٢١٩٤.

المرء يوم القيامة على طريقة الترتيبي في القرب والمحبة؛ مبالغةً في وصف الهول والفرع الذي يعيشه، ف«ذكر فرار الإنسان من أحبائه، ورتبهم ترتيباً في الحنو والشفقة، فبدأ بالأقل، وختم بالأكثر؛ لأن الإنسان أشد شفقةً على بنيه من كل ما تقدم ذكره، وإنما يفر منهم؛ لاشتغاله بنفسه»^(٢).

وقد اقتضى السياق هذا الترتيب، في حين نجد أنه في موضع آخر بدأ بما انتهى منه هنا وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يَبْصُرُونَهُ يَوْمَئِذٍ وَيُبْصِرُونَهُ لَوْ كُنْتُمْ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَيْنِهِ (١١) وَصَدِيقِيهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ عَلَيْهَا (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠-١٤].

ومما لاشك فيه أن سبب تقديم الأخ على الأم والأب والصاحبة والابن في سورة عبس، وتقديم الابن على الصاحبة والأخ والفصيلة (الأم) في سورة المعارج، كان لأمرٍ خاصٍ يقتضيه السياق، جعل النظم في الترتيب مغايراً في الموضوعين، وهو يقوم على اختيارٍ معنويٍّ جماليٍّ خاصٍ، ويهيئ لتصورٍ معينٍ، ويحقق كل شروط الفن البلاغي.

وسبب ذلك أن المقام في سورة عبس مقام فرارٍ وهربٍ من الأحبة انشغالاً بالنفس

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزى الكلبي ٤٥٤/٢.

واتساعها في قلب الكافر، وتفاقم التشتت الذي يعتربه، وهذا ما يرمز إليه الانتقال من الأدنى إلى الأبعد عاطفياً ومكانياً، ويدل أيضاً على العجز عن طلب المعين، والاضطراب في التماسه اضطراباً شديداً باتساع دائرة البحث عنه درجةً بعد درجة حتى تشمل كل الموجودات في ذلك اليوم العصيب^(١).

وثمة أمورٌ أخرى اقتضت أن يكون الترتيب مغايراً في سورة المعارج، منها أن المفتدي هو (مجرم) وليس إنساناً اعتيادياً، والمجرم مستعدٌ لفعل أي شيء؛ للنجاة بنفسه ولو كان الفداء بأحب وأقرب من لديه؛ ليضعه مكانه في النار، بل لا يهمله لو افتدى بالناس كلهم بذنبه، ومنها أن البدء بأقرب الناس يدل على هول العذاب فوق التصور مما يجعله يفندي هكذا، ومنها أنه ذكر ما يناسب هذه القطيعة بالافتداء وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيًّا حَمِيًّا﴾ [المعارج: ١٠].

والحميم: القريب، فبدأ بالأقرب فالأبعد^(٢).

يوم الفرع الأكبر، والإنسان يفر من الأبعد أولاً ثم ينتهي بالصق الناس به، فجاء الترتيب من الأدنى إلى الأعلى؛ لأنه يناسب فكرة الفرار والنكوص عن مساعدة أقرب الأقربين - انشغالاً بالنفس - من شدة الهول ولذلك تأخر ذكر البنين؛ لأنه لو بدأ بذكرهم، لما احتاج بعد ذلك إلى ذكر غيرهم، ولأن الوصف بالتخلي عن نجدة الأبناء، والانصراف عنهم هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعبير عن مدى انشغال الإنسان بهمومه الخاصة ومشكلاته الذاتية عن كل ما حوله، فهذا وصفٌ لما يتتاب المرء من الذاتية المطلقة والاستغراق المطلق بالقلق الشخصي على المصير في ذلك اليوم العصيب، في حين نرى أن السياق في سورة المعارج غيره في سورة عبس؛ إذ يؤتى بالمجرم؛ ليلقى جزاء عمله في النار.

فالمقام مقام البحث عن المنقذ والمعين والمفتدي، والمجرم يود النجاة بكل سبيلٍ ولو أدى ذلك إلى أن يبدأ بأقرب الناس إليه، فكان الترتيب على سبيل التذلي فبدأ بالأقرب كما تعول عليه النفس، فالابن فالزوجة، فالأخ فالعشيرة، ثم من في الأرض جميعاً.

وهذا الترتيب فضلاً عن أنه تعبيرٌ يناسب من حيث تدرجه حركة الكافر النفسية في ذلك اليوم، فإنه تعبيرٌ عن اشتعال الحيرة

(١) انظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم، عفت الشرقاوي ص ١٠٥-١١٠.

(٢) انظر: الجملة العربية تأليفها وأقسامها، فاضل صالح السامرائي ص ٤٧-٤٨.

دقة الميزان في وزنه حتى الذرة المتناهية في الصغر قسطاً وعدلاً من الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۖ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

فهذه آياتٌ تصف دقة الميزان الرباني في اليوم الآخر، الناس يمضون ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين بحسب أعمالهم ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ خيراً كانت أم شراً، يرونها مكتوبةً في صحائفهم، فيعطون كتبهم بحسب أعمالهم يمينهم أو شمالهم، ويرونها وهي توزن في الميزان.

وهذا ما يدل عليه التفرغ بعدها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ﴾ «انتقالاً للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، والتفرغ قاضٍ بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتاً»^(٢).

وبعض الخلق لا يقيم لهم الرحمن وزناً في اليوم الآخر، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۗ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۗ ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ۗ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۗ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ ۖ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ۗ﴾ [الفارعة: ٦-١١].

فجاءت الآيات الكريمة؛ لتعرض وزن أعمال الناس في الميزان، وتفصل في حالهم إلى حالٍ حسنةٍ لأهل السعادة المعبر عنهم بـ ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، وحالٍ فظيعةٍ لأهل الشقاء المعبر عنهم بـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ ۖ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ﴾^(١).

فكان في التفصيل مقابلةً بين الصنفين الشقي منهم والسعيد، وبيان منزل كل فريقٍ منهم، فالسعداء ترجح حسناتهم على سيئاتهم، وتثقل في الميزان وتكون خاتمتهم إلى الجنان، أما الأشقياء الذين لا تقوم بهم حسناتهم وترجح سيئاتهم فيكون مآلهم إلى النار.

وفي مواضع أخرى يصور القرآن الكريم

(٢) المصدر السابق ٣٠/٤٩٤.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/٥١٣.

ذَرَعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ لِأَمِينِ غَسَلِينَ ﴿٣٦﴾
لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ [الحاقة: ١٨-٣٧].

فهذه آياتٌ تصف الحساب وموقف
الناس عنده؛ إذ ينقسمون إلى قسمين، منهم
من يؤتى كتابه بيمينه، فيسعد أيما سعادة،
ويفرح فرحًا كبيرًا، ومنهم من يؤتى كتابه
بشماله، فيشقى أيما شقاوة، ويحزن حزنًا
عميقًا، فريقان مختلفان في موقفٍ واحدٍ،
يصورهما القرآن أدق تصوير.

ومن مشاهد تطاير الصحف وإتيان
الكتاب في اليمين أو الشمال أيضًا قوله
تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَتَهُ بِسَمِيئِهِ ﴿٧﴾
فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ
مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ
يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ
مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ نَّجُودَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ
بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ [الانشقاق: ٧-١٥].

جاءت هذه الآيات تفصيلًا للإجمال
في قوله تعالى في أول السورة: ﴿يَتَأْتِيهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقْدِرْ﴾، وهي
تقابل بين صنفَي الناس آنذاك، فمنهم من
يؤتى كتابه بيمينه وهو السعيد، ومنهم من
يؤتى كتابه بشماله وهو الشقي. والحساب
اليسير في الآية كناية عن عدم المؤاخذه
على سيئاته، بل هو عرضٌ فقط يذكر فيه

وقد جاء بيان هذه الآيات الكريمات
في السنة النبوية الشريفة فعن أبي هريرة
رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم
السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح
بعوضة، وقال: اقرأوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ ﴿١﴾).

٢. تطاير الصحف.

تطالعنا آياتٌ في التعبير القرآني تعرض
لمشاهد من الحساب، وهي تطاير الصحف
إلى أصحابها، تلك الصحف التي يكتب
فيها ما قدم ابن آدم في حياته، وقد جاءت
هذه المشاهد؛ لتقابل بين صنفين من الناس؛
صنفٌ يؤتى كتابه بيمينه، وآخر يؤتى كتابه
بشماله، وحال كل واحدٍ منها بعدها.

ومن هذه المشاهد ما جاء في قوله تعالى:
﴿يَوْمَ يُدْعَىٰ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ
أَوْفَىٰ كَيْفَتَهُ بِسَمِيئِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَوْلَادُ كَيْفَتِي ﴿١٩﴾
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةٌ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قَطُوفُهَا دَائِمَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا
وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ﴿٢٤﴾
وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَتَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لِمَ آتَوْتُمْ كَيْفَتِي
﴿٢٥﴾ وَلِمَ آتَرْتُمْ مَا حَسْبِيَّةٌ ﴿٢٦﴾ يَلْتَمِسُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةٌ ﴿٢٨﴾ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾
خُدُّوهُ فَعَلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لَنَجْجِمَنَّ سَلْوَهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سَلْسَلَةٍ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٧٢٩،
كتاب التفسير، باب (أولئك الذين كفروا
بآيات ربهم ولقائه)، ٦/٩٣.

أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِمِيزَانِهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ
كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ وَأَصْلُهُ
سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ [الإسراء: ٧١-٧٢].

٣. الشهادة على الخلق.

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين أن هناك الكثير من الشهود على الإنسان في اليوم الآخر لإقامة الحجة عليه ولتكون دليلاً وشاهدًا على ما فعله في الحياة الدنيا، وربنا الرحمن تعالى لا يحتاج إلى من يخبره عن عبادته أو يشهد عليهم بما فعلوه، فهو العالم تعالى بهم وبأعمالهم كما حكى عن نفسه العلية في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا رَبُّنَا الَّذِي أَلْزَمَهُمْ تَلْقَائَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُمْ آيَاتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

وشهادة الرب تعالى على الإنسان في الدنيا تكفي على ابن آدم فهو أعظم شهيد وأجل شهيد تعالى، إلا أنه سبحانه من كمال عدله وإعذارًا لهم أقام عليهم الشهود بعد شهادته عليهم، ونوعهم وكثرتهم؛ لإلزامهم الحجة والبيينة، وهؤلاء الشهود كثر كما

تعالى المؤمن بما عمل في الدنيا^(١). ثم يتجاوز عنه، فهو حسابٌ قليلٌ يسيرٌ كما دل عليه التنكير في قوله تعالى: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾. ويدل عليه أيضًا ما روي عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من نوقش الحساب عذب) قالت: قلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال صلى الله عليه وسلم: (ذلك العرض)^(٢)، وفي رواية أخرى: (ليس ذاك الحساب! إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)^(٣).

وبعد هذا العرض ينصرف إلى بيته وأهله في الجنة مسرورًا فرحًا. أما الشقي فسيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ لأن «أيمانهم تغل إلى أعناقهم، وتكون شمائلهم وراء ظهورهم»^(٤).

وما أن يقرأ كتابه حتى يدعو على نفسه بالهلاك لسوء مصيره؛ إذ سيدخل جهنم. ومما جاء في بيان الصحف وتطايرها أيضًا قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَاتِهِمْ فَمَنْ

- (١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/٢٢٣.
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم ٦١٧١، ٢٣٩٤/٥.
- (٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٨٧٦، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إثبات الحساب، ٤/٢٢٠٤.
- (٤) معاني القرآن ٣/٢٥٠.

شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون في الدنيا صغيره وكبيره. ومنهم الكتاب الذي سجل كل صغيرة وكبيرة عليهم قال تعالى: ﴿وَرَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿﴾ [الجاثية: ٢٨-٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَرَرَىٰ الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتَنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٢٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَفَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩].

آيات تعرض لساحة العرض والحساب، وقد تجمعت فيها الخلائق كلها وتحشدت، وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة يرتقبون الحساب، ويجابهون بالجزاء وكل شيء قد كتب واستنسخ في كتاب دقيق ناطق الذي لم يترك عملاً صغيراً أو كبيراً إلا وأحاط به.

ومن الشهود على الخلق أيضاً الأنبياء والرسول كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مَثْقَالَ دَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ

ذكرنا، أولهم ربنا الرحمن إذ يذكر الإنسان بما قدم في الدنيا ويقول له: ألم تفعل كذا وكذا؟ - كما جاء في الصحيح. والآيات في شهادته تعالى على العباد كثيرة. ذكرنا بعضها في هذه الفقرة ومع هذا، فالإنسان بجحوده ينكر وينكر، فيزيد الله تعالى له الشهود من مخلوقاته عليه حكماً وعدلاً - كما سيأتي -.

ومن الشهود على الخلق أيضاً بعد شهادة الله تعالى الملائكة بأصنافها كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمَلَائِكَةُ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَيْدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مَعْتَدُ ﴿١٩﴾ وَتُفْعَلُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿﴾ [ق: ١٧-٢١].

أي: ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالدينِ ﴿١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٢﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿٣﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿﴾ [الانفطار: ٩-١٢].

أي: ملائكة يكتبون ما كنتم تعملون في الدنيا غير مضيعينه، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿﴾ [هود: ١٨].

ومن هؤلاء الأَشْهَاد الملائكة الذين

ومن الشهود على الخلق أيضًا أمة محمد؛ إذ يجيء بها شاهدة على الأمم؛ لعدلها بعد أن تشهد الرسل على أقوالهم، لا تجد هذه الأمم حينئذ إلا تكذيب رسلها وإنكار تأديتهم للرسالة كما كانوا يكذبونهم في الدنيا، فتقوم الأمة الوسط أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك في

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].
وقوله تعالى أيضًا: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

هذه الشهادة التي تأتي بعد تكذيب الأمم لرسولها كما سبق وقد جاء بيان ذلك صراحة في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجيء نوح وأمه، فيقول الله تعالى هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمتي: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمه، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله -جل ذكره-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الوسط: العدل] (١).

ومن الشهود على الخلق أيضًا الأرض، (١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٣٩، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/ ١٣٤.

إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّيْتُ بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٠-٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

يعني: إذا جاء الرسول في اليوم الآخر قضي بينهم وسماه الله تعالى شهيدًا كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُكَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثَمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

﴿وَيَوْمَ نَبِّئُكَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وغيرها من الآيات. والآيات السابغات تدل بجموعها أنه تعالى في اليوم الآخر سيجمع الخلائق ويجيء بكل أمة ليشهد عليهم رسولها بما بلغ وبما أجابته به أمة حين دعاها إلى الله تعالى؛ لثلاث يكون للناس حجة بعد الرسل فيشهد عليها بالحق، فحينئذ يتمنون لو أنهم سواوا بالأرض، وسويت بهم، فيكونون نسيًا منسيًا، حالهم كحال سائر البهائم، وذلك من عظيم ما يرون من الهول والشدة، وهيئات لهم ذلك.

«وهكذا يخذل بعضهم بعضًا وتشهد عليهم جوارحهم، وتفكك شخصيتهم مزقًا وأحادًا يكذب بعضها بعضًا، وتعود كل جارحة إلى ربه مفردة، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلمًا، إنه مشهدٌ عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب»^(٢).

ومن شهادة الجوارح أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ١٩-٢٣].

فآيات الكريمات تصف حال العباد المنكرين للمكتوب في صحفهم من السيئات المطالبين بأن لا يكون الشاهد عليهم إلا من أنفسهم، فيختم الله على أفواههم فلا تستطيع أن تنطق بشيء ثم يأمر أعضائهم أن تشهد عليهم بما عملوا. والكافرون اعتادوا على الكذب في الدنيا، وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققوا عن طريقه فوزًا ونفعًا، وهكذا جاءت الآية؛ لتسد

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٩٧٣.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفُسًا لَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَنَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٢-٥].

فالأرض تشهد على الإنسان بما عمل على ظهرها بعد إنكاره فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. قال: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل عمل كذا في يوم كذا، فهذه أخبارها)^(١).

فإذا أنكر الخلق كل الشهود السابقين وكذبوهم ولجوا في الخصومة، أقام الله عليهم شاهدًا منهم، فتشهد عليهم جوارحهم (سمعهم وأبصارهم وجلودهم) بما قدموا من أعمال في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، رقم ٣٠١٢، كتاب التفسير، باب من كتاب قراءات النبي، ٢/٢٨١.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ولم يتعبه الذهبي.

هناك توافق بين ما يدلي به المعترف وما يدلي به الشاهد^(٢).

وقد جاء حديث في الصحيح يجمع أغلب هؤلاء الشهود على المخلوق عند إنكاره فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو تبسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تسألوني من أي شيء ضحكت؟) فقال: (عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب، أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى، قال: فإنني لا أقبل علي شهادة شاهدٍ إلا من نفسي، فيقول: أو ليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مرات، فيختم على فيه، وتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لكم وسحقاً، عنكم كنت أجادل)^(٣).

وبعد كل هؤلاء الشهود على الخلق في ساحة العرض والحساب، وبعد أن يرى المخلوق الحق، ويتبين له أن الله لا تخفى عليه خافية، ويرى كل ما عمله في الدنيا مكتوباً في صحيفته، وقامت عليه

(٢) انظر: تأملات في سورة يس، حسن محمد باجودة، ص ٨٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک، رقم ٨٧٧٨، كتاب الأحوال، ٤/٦٤٤.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه»، ولم يتعقبه الذهبي.

عليهم هذا الباب الذي اعتادوا أن يدخلوا ويخرجوا منه.

فيوم القيامة يختم تعالى على أفواههم ويعقد ألسنتهم، وتترك الشهادة إلى غير اللسان من أعضاء جسمه، بعد أن رفض هذا الإنسان شهادة الناس والملائكة عليه، فتشهد عليهم أعضاؤهم على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم، وعلى غير ما كانوا ينتظرون؛ لأنهم كانوا يدافعون ويكذبون في الدنيا، وبعدها تنقلب عليهم في الآخرة.

والناظر في الآية يرى أنه تعالى أسند الختم إلى نفسه في حين أسند الكلام والشهادة إلى الجوارح؛ لأنه لو أسندها إليه لكان هناك احتمال في أن يكون ذلك جبراً وقهراً، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فنسبها إليها، فتشهد باختيارها لخالقها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام؛ ليكون أدل على صدور الذنب منهم^(١).

وثمة لطيفة في تقديم الاعتراف أو الكلام على الشهادة، وذلك لمناسبة الواقع فالعادة جرت بأن تسير الأمور في القضايا على وفق هذا النسق، الاعتراف أولاً، والشهود ثانياً، وهذا ما بيته الآية الكريمة، وكذلك قدم؛ لأن دوره في هذه القضية أكثر فعالية وأبلغ دلالة من الشهادة، وبخاصة عندما يكون

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/٥٥٥-٥٥٦.

الشهود ويرى أنه لا برهان له ولا حجة، يقر ويعترف بما جنى وأترف كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٤. الخصوم بين يدي رب العالمين.

من مواقف الحشر والحساب تخاصم الكافرين مع شركائهم ومضليهم.

وقد جاءت آيات كريمات عديدة تبين هذا التخاصم منها ما جاء في تصوير التخاصم بين الأتباع مع قادتهم المضلين لهم في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩) وَقَالُوا يَا بَنِيَّآ هَذَا يَوْمَ الْآزِيمِ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذٰئِقُونَ (٣١) فَأَعْرَبْنَاكُمْ إِنَّا كَمَا غَرَبْنَا (٣٢) فَأَتَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصفات: ١٩-٣٥].

آيات كريمات تصور تخاصم الكافرين المجرمين مع أسيادهم وقادتهم المضلين لهم، فيقول الضعفاء التابعون للقادة المضلين لهم: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ لإضلالنا ومنعنا من سماع الحق واتباعه. فيرد المضلون على المستضعفين منكرين لإضلالهم إياهم، ويقولون لهم: ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، براءة منهم بعد ما رأوا الحق بأعينهم وعابنوا العذاب الواقع بهم جميعاً لا محالة. وقريب من هذه الآيات نقرأ قوله تعالى: ﴿وَيَزِرُوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُونَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ نَبِيًّا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدِيَّتَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَلَيْنَا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وغيرها من الآيات الكريمات.

ومن التخاصم ما يحصل بين العابدين ومعبوداتهم عندما يجمعهم الله في مكان واحد، وقد جاء ذلك القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (١٧) قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِٰبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا﴾ [الفرقان: ١٧-١٨].

الآخر عندما تنقلب خلة الكافرين عداوة بينهم، أما المؤمنون فلا يصيبهم خوف ولا حزن حيث الجنة ماوى لهم ولأزواجهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٦) الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَتَعَبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ [الزخرف: ٦٦-٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَرَزَقْنَا الْجَبِمِمْ لَلْعَاوِينَ ﴾ (١١) وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿١٣﴾ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوِنُ ﴿١٤﴾ وَخُذُوا إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَصَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٩﴾ [الشعراء: ٩١-٩٩].

ومن التخاصم ما يحصل بين الكافرين وقرنائهم، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَك فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عِينٌ ﴿٢٣﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عِينٌ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ الْبُكْرَ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾] ق: [٢٩-٢٠].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣١﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ ﴿٣٣﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٤﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩].

ومن التخاصم ما يحصل في اليوم

المآل والمصير

جاءت مشاهد مآل ومصير الخلق في اليوم الآخر وجزائهم في كثير من آيات القرآن الكريم، ولو أردنا ذكرها مع بيانها لاحتجنا إلى مئات الصفحات، والناظر إليها يجد أغلبها - إن لم تكن جميعها - جاءت على سبيل التقابل بين مآل ومصير المؤمنين ومآل ومصير الكافرين؛ ليصور ما للمؤمنين من نعيم في الجنان، وما للمجرمين من عذاب في النيران، وقد جاءت هذه المشاهد ترغيباً وترهيباً، ترغيباً في الإيمان والعمل الصالح الموصل إلى الجنان، وترهيباً من الكفر والمعاصي الموصل إلى النيران، وهذا التقابل مقصودٌ؛ إذ بضدها تتميز الأشياء، لتمييز البون الشاسع بين منازل المجرمين، ومراتب المؤمنين، معتمدة في أغلبها على التصوير الذي يعد «الأداة المفضلة لأسلوب القرآن»^(١).

ويلاحظ على هذه المشاهد أن التقابل لم يأت على نمط واحد، بل جاء متنوعاً، فأحياناً يكون التقابل ثلاثياً بين السابقين وأصحاب اليمين والمجرمين نحو ما جاء في سورة الرحمن والواقعة، وتارة يكون التقابل ثنائياً بين المؤمنين والكافرين، وهذا التقابل الثنائي أكثر ذكراً من الثلاثي وسيأتي

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص ٣٦.

تفصيله.

ومن أمثلة التقابل الثلاثي بين المؤمنين السابقين والمؤمنين من أصحاب اليمين والكافرين المجرمين قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ٤١﴾^(١) **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢** هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتُونَ ٤٤ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥** وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ٤٦ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧** ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ٤٨ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩** فِيهَا عَيْنَانِ ٥٠ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٥١** فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِجَاجٍ ٥٢ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٥٣** مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّةِ ٥٤ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٥٥** فِيهَا قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئُنْ بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٥٦ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧** كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ٥٨ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩** هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ٦٠ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٦١** وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّاتٍ ٦٢ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٦٣** مُدَاهَاتَانِ ٦٤ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٦٥** فِيهَا عَيْنَانِ فَضَاحَتَانِ ٦٦ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٦٧** فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ٦٨ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٦٩** فِيهَا خَيْرٌ حِسَانٌ ٧٠ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٧١** حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَابِ ٧٢ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ٧٣** لَمْ يَطْمِئُنْ بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٧٤ **فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَمَا**

تَكْذِبَانَ ﴿٧٥﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى رَقْرَقٍ خُضِرَ وَعَبَقْرِيٍّ
حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فِي آيَاتِ مَا آوَىٰ رَيْكًا تَكْذِبَانَ ﴿٧٧﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ
رَبِّكَ ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ [الرحمن: ٤١-٧٨].
وفي موضع آخر يطالعنا تقابل ثلاثي
آخر، ولكنه يصرح فيه بذكر أسماء أصحاب
الجزاء، وذلك في موضعين من سورة
الواقعة، في أولها وفي آخرها؛ ليتناسق البدء
مع الختام في ذكر جزاء الناس في الآخرة.
الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ
أَزْوَاجًا نُّنْتَىٰ ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْيَمِينَةِ مَا أَصْحَابُ
الْيَمِينَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَّةِ
﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمَقْرُونُونَ ﴿١١﴾
فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ
مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَكِبِينَ
عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾
يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ
عَنَّا وَلَا يُنْفِرُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهَمُوا مِمَّا بَتَحَوَّرُوا ﴿٢٠﴾
وَلَمْ يَطْمَئِنُّوا مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَخُورُوا عِندَ ﴿٢٢﴾ كَأَنَّمْزَلِ
الَّذِينَ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْتِيًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا
سَلَمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾
فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾
وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهَمُوا كَثِيرًا ﴿٣٢﴾ لَا
مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُورٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا
أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَّغْنَهُنَّ أَكْثَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَرْبَابًا ﴿٣٧﴾
لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾
وَتَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا

أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُورِهِ وَجِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظَلَّ مِنْ
يَحْشُرٍ ﴿٤٣﴾ لَا يَارِدُوا وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنْتُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذَلِكَ مُتَرَفِّعِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ
﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْمًا
أَيُّ نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَّاهَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ
إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ لَكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَا تَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْحَوْنُ مِنهَا الْبَطُونُ ﴿٥٣﴾
فَسَدْرُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّعِيمِ ﴿٥٤﴾ فَسَدْرُونَ شَرَبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾
هَذَا تَرْكُومٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ [الواقعة: ٧-٥٦].

وفي نهاية تحليل الشواهد الثلاثية التقابل
نجد أنه في سورة الرحمن كان التقابل
الأساس بين السابقين وأصحاب اليمين
كما مر، أما في سورة الواقعة فالتقابل يقع
بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. هذا
التقابل الذي يعتمد إليه دائماً؛ ليرى البون بين
المصيرين.

وإذا انتقلنا إلى النوع الثاني من التقابل،
وهو التقابل الثنائي نجده أكثر وروداً من
النوع الأول، وهذا التقابل الثنائي يكون
متساوياً تقريباً في الآيات بين الصنفين،
وأحياناً يكون التركيز على صنف أكثر من
الآخر كما سيأتي.

ومن أمثلة النوع الأول التقابل بين حال
المؤمنين في الجنة وحال الكافرين في النار،
وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا
﴿١﴾ لِلطَّاغِيَةِ مَنَابَا ﴿٢﴾ لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٣﴾ لَا

أَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا
أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُورِهِ وَجِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظَلَّ مِنْ
يَحْشُرٍ ﴿٤٣﴾ لَا يَارِدُوا وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنْتُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذَلِكَ مُتَرَفِّعِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ
﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْمًا
أَيُّ نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَّاهَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ
إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ لَكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَا تَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْحَوْنُ مِنهَا الْبَطُونُ ﴿٥٣﴾
فَسَدْرُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّعِيمِ ﴿٥٤﴾ فَسَدْرُونَ شَرَبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾
هَذَا تَرْكُومٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ [الواقعة: ٧-٥٦].

المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحوادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة^(١).

وجرياً على سنن القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، يذكر سبحانه حال الأتقياء السعداء من أهل الجنة بعد ذكر

حال الأشقياء من أهل النار فيقول سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۗ لِسْعِيهَا رَاضِيَةٌ ۗ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۗ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۗ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۗ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۗ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۗ وَلَا تَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۗ وَزَوَاجٍ مُتَبَوِّئَةٌ ۗ﴾.

وفي مواضع أخرى نجد تقابلاً ثنائياً بين جزاء المؤمنين والكافرين في الآخرة، ولكنه لا يأتي متساوياً في الطول بينهما، فأحياناً يكون مشهد جزاء الكافرين قصيراً في مقابل جزاء المؤمنين الذي يطول، أو يكون مشهد جزاء المؤمنين أقصر من مشهد جزاء الكافرين، وكلٌّ موافقٌ للسياق الذي جاء فيه.

فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّا آَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا ۖ وَآَعْتَدْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۗ﴾. ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۗ ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۗ ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۗ ﴿٧﴾ وَيَطْمَئِنُّونَ عَلَىٰ طَعَامٍ عَلِيٍّ مِيسَكِينًا ۗ

(١) مشاهد القيامة في القرآن ٦.

يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۗ ﴿١٦﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَافًا ۗ ﴿١٧﴾ جَزَاءً وَفَقَآ ۗ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۗ ﴿١٩﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ۗ ﴿٢٠﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۗ ﴿٢١﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۗ ﴿٢٢﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَآ ۗ ﴿٢٣﴾ حُدُوقًا وَعُنَبًا ۗ ﴿٢٤﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۗ ﴿٢٥﴾ وَكَأْسَادَهَا قَا ۗ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ۗ ﴿٢٧﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآ حِسَابًا ۗ [النبا: ٢١-٣٦].

وفي موضع آخر يطالعنا تقابلٌ بين وجوه الأشقياء ووجوه السعداء، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۗ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۗ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۗ ﴿٣﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ۗ ﴿٤﴾ تَسْقَىٰ مِّنْ عَيْنٍ آَانِيَةٍ ۗ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيحٍ ۗ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِّنْ جُوعٍ ۗ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۗ ﴿٨﴾ لِسْعِيهَا رَاضِيَةٌ ۗ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۗ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۗ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۗ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۗ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۗ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ مَّصْفُوفَةٌ ۗ ﴿١٥﴾ وَزَوَاجٍ مُتَبَوِّئَةٌ ۗ﴾ [الغاشية: ١-١٦].

آياتٌ تعرض مقابلةً كاملة المشاهد، متناسقة الأجزاء بين جزاء الفريقين؛ إذ تقابل بين وجوه المجرمين من أصحاب النار وهي خاشعةٌ ذليلةٌ مع ذكر صنوف عذابهم المعنوي والحسي، ووجوه المتقين من أصحاب الجنة وهي ناعمةٌ سعيدةٌ مع ذكر صنوف جزائهم المعنوي والحسي، عن طريق التصوير الذي يعد «الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة

وَيَمَّا وَاسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطَلَعُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْرُفُهَا نَدِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِمِائِينَ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ فَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا سَمْنٌ سَسِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنشُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعْمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رِيثُهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿[الإنسان: ٤-٢٢].﴾

لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جَمَلٌ صَفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَبِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنُ لَهُمْ فَعْتَدَرُونَ ﴿٣٦﴾ وَبِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأُولَى ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَبِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَقَوَائِمٍ وَمَا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَبِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿[المرسلات: ٢٩-٤٥].﴾

فآيات جزاء الكافرين أكثر من آيات جزاء المؤمنين، وجاء النظم بهذه الصورة؛ لأن سياق السورة لتهديد الكافرين ووعيدهم، لذا نجد أنه حتى جزاء المؤمنين ختم بـ: ﴿وَبِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. فالسياق سياق تهيب وتخويف لذا ناسبه طول جزاء الكافرين.

فهذه الآيات يلاحظ عليها قصر مشهد جزاء الكافرين الذي جاء في آية واحدة في مقابل مشهد جزاء المؤمنين الذي جاء طويلاً، وهذا يرجع إلى طبيعة السورة التي تركز على فضل الله تعالى ونعمه على خلقه، بالخلق والإيجاد والعلم والمعرفة وغيرها، فناسب طول جزاء المؤمنين وذكر نعيمهم لهذه النعم.

وإذا أخذنا شاهداً على طول جزاء الكافرين وقصر جزاء المؤمنين، نجده كذلك مناسباً للسياق الذي هو فيه نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تَكذِّبُونَ ﴿٢١﴾ انطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شَعْبٍ ﴿٢٠﴾

موضوعات ذات صلة:

البعث، الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب، القبر، النار